

فضيلة الفاروق

مزاج مراهقة

رواية



الفارابي



www.ithar.com/vb

عبدالله العرابي

awaraq4@hotmail.com

مزاج مراهقة

فضيلة الفاروق

مزاج مراهقة

(رواية)

دار الفارابي

الكتاب: مزاج مراعاة
المؤلف: فضيلة الغاروق
الغلاف: فارس خصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: (01)301461 - فاكس: (01)307775
ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 1107 2130
e-mail: farabi@inco.com.lb

الطبعة الأولى 1999
الطبعة الثانية 2007
ISBN: 978-9953-71-027-0

© جميع الحقوق محفوظة

لا أدري بالضبط، هل هذه قصتي أم قصة توفيق عبد الجليل؟ هل هذه محنتي أم محنته، أسئلتي أم أسئلته؟ أم عقدة ما كان بيننا من اختلاف؟

لا أدري لماذا التفتينا، فقد اختلفنا كثيراً عن بعضنا بعضاً ليصمد الحب الذي نما بيننا. وأمام هبات ما حدث، لم تكن سوى زوينة من تلك الزوابع الصغيرة التي لم تترك وراءها إلا بعض الخسائر التي لا تذكر.
لا أدري لماذا كنا...

كما تكون الجبال والأنهار والمدن المدفونة في التاريخ، ثم حين انتهينا... انتهينا في أفعال الماضي الذي لا يموت. لا أدري...

ولكنني أعرف اليوم أنه كان الرجل الذي تمنيت أن أكونه حين تجاوزتني رغبة الحب في أن يكون لي.
قلت لنفسني هذا هو: بهندامه، ببساطته، بسمرته، بأنغامه، بحركاته، بكلماته... كما هو.

قلت هذا هو، على الرغم من أنه لم يكن نسخة عن فارس أحلامي، وربما كان مجرد شبيه له... لكنه كان هو وقد عرفت فيما بعد أن فارس الأحلام شيء يشبه الحب لأنه يفوق الحب فقد يصبح حاجة، لكنه أيضاً يشبه الأفلام التي نحبها، والروايات التي نعشقها، والأشخاص الذين تغير المخيلة في ملامحهم حسب ظروف الحياة والرغبة.

توفيق اختلف في دخوله أماكني الخفية، وكان حضوره شبيهاً بذاك المطر الخفيف الذي نحب في أواخر الشتاء. لكنه جاء باكراً وغادر باكراً، جاء مبهماً وغادر مبهماً. لم أستمتع به.

والحق، عندما ظننت أن كل شيء انتهى، كان كل شيء قد بدأ مغايراً...

غذاء القلب يمكن أن يكون قسمة واحدة، وقد يكون نظرة واحدة، وقد يكون وهماً... كالذي صنع مفارق دروي عند رجلين، فضالت الطريق.

رجلان... هما في النهاية جيلان مختلفان، تياران لا يلتقيان -

تاريخان ضاعت بينهما حلقة وصل،

لكنهما كانا معاً عقلي وعاطفتي، عطبي وصلابتي،
ولهذا حين أردت الاحتفاظ بأحدهما خسرت الاثنین معاً.
ها أنا اليوم أكتب...

توفيق عبد الجليل مرٌّ من هنا...

عبر كل سطورِي، وعبر مواطن الصدق التي خيأتها، ها
أنا أصف...

أقول ما حدث، وأجد عيوناً تسمعني، حين لم أجد
أفاناً تفعل ذلك.

وها أنا اعترف:

توفيق عبد الجليل يسكن هنا، في العنوان الوحيد الذي
لا يمكنني أن أتوه عنه، يعيش هنا، يتحرك هنا، يمارس
حضوره العذب في دمي وفي ألمي...

لكن يوسف، ذاك الأني من بلاد العمالقة، اعتلى
مسرحي وأضاء أضوائه ليدخل اللعبة من الباب الخلفي
لِعواظي، فتح طريقاً لم أتوقعها للحب... كان بيتنا، هو
من جمع... وهو من فصل.

يوسف عبد الجليل، النص الذي أحالني على الدنيا
بحب أكثر وارتباك أقل.

أو النص الذي كان رجلاً ولم يكن أقاصيص من حبر،

أو النص الذي لم يخلد قناعاتي، لكنه بشكل ما خلد
القلب لتحية قصصه...

كانت أيامنا تلك شاطناً جميلاً، بنينا عليه قصوراً من
الرمل، ولم نأخذ منه غير ذكرى الدفء والرائحة وصوت
البحر. واليوم...

حين يكتسح الليل غرفتي، ويفرع أبواب القلب
بتعاماته، لا أجد أمامي غير بقايا ذلك الدفء، والرائحة،
والصوت. فيستيق الشاطئ وتستيقظ الفصوص ويبدأ الموج
بكلامه المباح...

تَطْمُ... تَطْمُ... تَطْمُ... على إيقاع القلب يبدأ
الكلام.

كنت أقول له الكثير، ولكنني لم أجرو يوماً على قول
ما يجب قوله، فالعائق بيننا، كان جداراً كبيراً من
الاختلاف.

تلك الثقافة...

تلك اللغة...

وتلك الأشياء الصغيرة التي لا ترى ولكنها تحجبنا عن
بعضنا بعضاً.

يحضرني صمته، رفيقه الذي يجالسا حين توصله أمثله
إلى دروب مسدودة.

تحضرني بحاره التي لا تثور، وطبيعته التي لا تقضب
حتى حين أنهيت ما كان بيننا بغياب. أتذكر كيف أقلمت
دموعه بيضة رسمية من مخابيه حزنه، وشيبت ما كان بيننا
بهده.

كان الرجل الذي لا يناقش المشاعر، فكثيراً ما قال
لي: «المشاعر كالأذواق، والأذواق لا تناقش».

ولهذا لم يناقشني يومها.

تحركت دموعه، وابتعدت، حتى لم أجد أراء، كان قد غادرتني دون أن يقول شيئاً.

وفي الصباح التالي وجدت المدينة التي أحببتها سابقاً قد غادرت هي الأخرى، وجدتني أنزل إلى شوارع لا أعرفها، وأخاطب أناساً غرباء، وأدخل صفاً ليس صفي، وأكتب محاضرة لا تعنيني في شيء.

وكان ذلك الصباح، بداية لزمان مفكك في داخلي وبداية لخواء لم ينته بعد.

لا أذكر بالضبط كيف بدأت الأمور... ففي الغالب البدايات التي ننساها ولا ننتبه لها كيف تمر، تحبك أقدارنا بشكل عجيب!

إنها الكواليس التي تختفي وراء ستائر واقعنا كيغما كان. ولكنني أذكر أن فرحي معطوب الحال دائماً، وأكاد أقول إنه فرح لثيم، لا يزورني إلا إذا ارتدى ثياب الحداد على أحد... فقد ارتبطت نجاحاتي المدرسية بخلافات حول الإرث بين أفراد العائلة الكبيرة، ما جعل العائلة تنقسم نصفين يوم نجحت في شهادة التعليم الابتدائي، ولا أذكر التفاصيل، ولكنني أذكر يوم وفاة جدتي الذي

صادف تماماً يوم إعلان نتائج شهادة التعليم المتوسط، وقد كانت امرأة قوية يخافها رجال العائلة، وغير ذلك كانت لنا سنداً قوياً غطى غياب والدي المستمر عن البيت، أما غيابها هي، فقد جعلنا نشعر أننا صرنا نعيش في العراء. يومها كنت الثانية في ترتيب التاجحين على مستوى الشرق الجزائري، لكن الظرف لم يكن مناسباً لتذوق ذلك النجاح، كان مناسباً أكثر لتلقي حجر في الرأس، رماني به ابن الجيران الذي احترق غيظاً حين عبثاً أحدهم: «إنها بنت ونجحت، وأنت رجل ورسبت!». فقد كدت أتسم حين وقعت الجملة في أذني، لكن الحجر أنساني شكل البسمة. ولم أجرؤ على الشكوى، خفت من ضربة حجر أخرى. لم تكن تلك المصادفات ذات أهمية، لكنها كما كل أيامي التاسعة تدفعني إلى اختراع أحلام جميلة، أهرب إليها كلما خلوت بنفسي. وكنت أجد ذخيرة لأحلامي في مكتبة خالي، أو الشاشة الصغيرة... أو بكل بساطة أغمض عيني وأضيء مسرحي الخاص... مع مرور الأيام، صارت اللعبة رغبة وضرورة، وممتعة لا أجدعها في واقع الحياة.

هين جداً أن نيسر ظروف حياتنا بحلم، لكن الصعب جداً حين تصادف الحلم ذات يوم.

حين يفاجئنا بكاء، ومشاعراً، وحضور جميل يملأ
دنيانا.

كان كل شيء لم يخرج عن إطار الحلم بعد، حين
نجحت في شهادة البكالوريا وفاجأنا والذي باتصال من
فرنسا مقر إقامته وعمله. قال: «ترتدي الحجاب وتذهب
إلى الجامعة».

وفي ما بعد عرفت أن رجال العائلة عارضوا التحاقني
بالجامعة، وأن والذي حاول إيجاد حل وسط لإرضاء
جميع الأطراف. يومها فقط عرفت أن غياب الرجل عن
العائلة يعني بيتاً بلا سقف، أو على رأي ناس مصر «ظل
رجل ولا ظل حبطة»، فقد كنا فريسة لسلطة الأعمام
والأقارب والجيران... وعابري السيل أحياناً!!

غير ذلك رفض والذي أن ألتحق بمدرسة الفنون
الجميلة، أو مدرسة الطيران بطقراوي، ففي نظره أن
الأولى مدرسة للغاشلين والثانية للرجال فقط...

ما أتعب أن يكون الفرد امرأة عندنا! فكل طموحاته
تتوقف عند عتبة تاء التأنيث...

لا علينا... بالنسبة إلي كانت الكارثة قد حلت،
وانتهى الأمر... إذ كنت أشعر أن السفر إلى الجامعة
بذلك الزبي التنكري يعني الموت، ولهذا رفضت وبكيت

وصرخت، وفي الأخير أضربت عن الطعام، لكنني فشلت...

فكل سبيل المقاومة لديّ كانت هتّة أمام الصئبع الذي يغطي قلب والدي، ولامبالاة أفراد العائلة.

فما زلت أذكر نبرة صوته الغاصب عبر الهاتف وهو يقول لي بتأني المقتنع بقراره:

- إبقى في البيت إذا، أو موتي...

لكن... صعب عليّ أن أموت، وعمر والدي يلاحقني إلى كل الزوايا. لم أر ابتسامتها إلا نادراً، لا يهمنها فرح أو عيد أو مناسبة من تلك المناسبات التي تشتهي النسوة حضورها لتغيير فستان في كل ساعة، أو إطلاق سراح النعيمة على ألسنتهن، أو المزاح أو إفشاء أسرارهن الحبيبة.

اختلفت عنهن دائماً بعبوسها وذيولها.

ويخيل إليّ أنها لا يمكن أن تعيش إلا إذا تكرّرت بحزنها ذلك، وبانهماكاتها اليومية التي لا تنتهي، وجلستها المسائية أمام أي إنتاج مصري في التلفزيون تتحجج بمشاهده الحزينة لتبكي حزنها هي.

كانت ركاباً من الحزن والسأم.

سينة الحظ على كل حال وإلا لما تزوّجت رجلاً فقط

ليحبها مرة كل سنتين دون أن يعيش أكثر من أيام معدودة كل ستة معها. من هنا بدأت نقاط الاختلاف بيني وبين توفيق.

كنت ثمرة واجب، وكان ثمرة حب.

ولهذا لم تكن اهتماماتي غير نقيض ما يفكر فيه في غالب الأحيان. كنت بحاجة إلى كثير من الحب، وكان بحاجة إلى أجوبة عن قضايا الفكرية؛ كنا نختلف، وذلك الاختلاف أخافني دائماً من دخول التجربة معه... وربما كان لحزن والدتي دخل في ذلك...

هي التي لم تكن بمستوى هوائيات والدي...

والذي كان رجلاً وسيماً، وفي نظري كان وسيماً جداً، وكثيراً ما كانت تبلغنا أخبار غرامياته عن طريق بعض المغتربين، ولا أذكر أن والدتي كان يهزها الأمر، إذ كان حزنها غير متعلق بخياناته المتكررة، وإنما بذلك الوعد القديم الذي حثه يوم تزوجها ليعاقلها على ورقة واجب، لم تكن تعني له أكثر من ورقة صالحة لمسح...
حذائه... أو أفراء المجتمع!

مؤلم جداً أن تمتح امرأة عذريتها لرجل أحب...
لا... بل فضل على طهرها نصف عاهرات فرنسا والجزائر.

ما زال يزورنا مرة في السنة، لشهر أو شهرين، ويتحوز البيت أثناء زيارته إلى ما يشبه محطة مسافرين، أفواج تأتي، وأفواج تذهب، ونحن الصبايا نتناوب على تحضير القهوة، وتقديمها للضيوف، وهكذا تظل المأدبة قائمة عندنا حتى يغادر.

والحقيقة...

لا أحد من كل ضيوفه يحبه لشخصه، فوالدي لم يكن أكثر من كومة «دوفيز»، أو رجل لمصالحهم، كان له بريق «الفرنك الفرنسي» وهذا ما يزيد حرماننا منه، لدرجة صرنا نتعامل معه بحياء وحجل كأنه أحد الغرباء.

نحن الصبايا، نشعر بذلك الحياء أكثر.

يسألنا: - ما أخباركن يا صبايا؟

نضحك، تبادل النظرات، نتكتمش ببعضنا بعضاً أحياناً

ونهرب من عينيه،

«ما أخبارنا؟»

لا أخبار لدينا أو...

يصعب علينا أن نفتح حديثاً معه. نجهل تماماً كيف

تحدث الفتيات آباءهن عن أخبارهن.

يسألنا مرة أخرى:

- هل تحتجن إلى شيء؟

عجيب!!

كل ما نحتاج إليه نطلبه من والدتي، وأحياناً تلتي لنا
الحاجة قبل طلبها.

نجيه: لا شيء.

يصدقنا، فيذهب. وننغمس في ضحكنا من جديد.

كان بعيداً عنا، ولهذا تفاجأت حين اقتحم حياتي
فجأة، «ترتدي الحجاب، وتذهب إلى الجامعة».

كيف أردتديه؟

وتلك الأشياء الجميلة التي كان يحضرها لي، كيف
أتركها في خزانتي، وأذهب إلى الجامعة بجلباب ومنديل
مثل جدتي؟ من هنا بدأت أسئلتني أنا.

انطلقت من قطعة القماش تلك التي لم تعد تعني لي
فقط التنكر الذي يوهم الأعمام أنني سأحمل سجنني معي
إلى الجامعة، بل صارت تعني لي إثبات مزيد من الفروق
بيني وبين الأخر، إدخالني قليلاً دائرة الرؤية الضبابية:
«كوني لكن لا تطهري». كتلك الصناديق القديمة التي
كانت تحرص جدتي على تغطيتها بأغطية أو ممتنا طويلاً
أنها مجرد طاولات فيما هي تحوي أشياءها الثمينة.

تساءلت أيضاً، لماذا لم يهتم أحد برسوب أختي
«زيتونة» و«وداد» أم أن رسوبهما هو الحدث الطبيعي

بالنسبة إلى رجال العائلة، ولهذا لم يفرض عليهما الحجاب.

«زيتونة» نفسها، التي كنت أظن أن خبرتها في الحياة بحكم مستوى تعليمها المتوسط لا تساوي شيئاً، فاجأتني برأيها:

- الحجاب عندنا غير مرتبط بسن البلوغ يا لويزا، إنه مرتبط بشيئين: بقناعة الفتاة نفسها وهذا شيء لا يضر، أو... بمستوى ذكائها. إذا ما شعر الأهل أنها ستخرج من دائرتهم فرضوه عليها لإربابكها لا غير...
كان لها حق...

فجأحي في البكالوريا جمع شمل العائلة من جديد، إذ عُقدت الاجتماعات، وأثيرت النقاشات، حتى خفت من تطور الأمور إلى تنظيم مظاهرات في الطريق للتنديد بذلك النجاح، لقد كان الشيء الذي أخافهم مشيراً للضحك، وهو احتمال إقامة علاقة مع الشبان، ولهذا سرعان ما أبلغوا والذي الخير ناسجين له ما تسنى لهم من الحكايات المفزعة حول بنات الجامعة، وكان لهم أن قلبوا حياتي رأساً على عقب...

كانت الجامعة حلماً كبيراً نما في داخلي، ولم يكن من السهل أن أزيل ذلك الحلم من خلايا الكيان لمجرد التحدي، ولهذا رضخت...

في المرأة،
 واجهتني نفسي وكأنها شخص آخر.
 فتاة ككل أولئك الفتيات المتشابهات، قليلة هي الأشياء
 التي توحى بأنني أنا.
 أقف أمام نفسي بوجهين
 وجه المرأة، صامت، كتوم، لم أفهم من ملامحه
 شيئاً. وجهي الذي أشعر به لم يعد يستوعبني بتلك الكذبة
 التي ارتدي.
 لم أعد أفهم من تكون التي تقف أمامي، قد تكون
 الفتاة الأكثر قبولاً لدى الآخرين، لا يلبق بها ذاك الطموح
 الفاجر الذي أخفيه بين الضلوع. كان جنوني في الحقيقة
 بنام تحت ذلك المنديل بتأثير صدمة التعبير المفاجيء،
 وقد سافرت إلى باتنة كأنما أسافر إلى حنفي وليس إلى
 حلمي، وكنت أحسب تقلص العمر منذ تلك الدقائق
 الأولى...

أذكر ذلك جيداً:

في الرابعة تماماً جاءت يد والدتي باردة مقبلة على
جيني الذي تراحم فيه القلق، تطرد عني ما تبقى من النوم
الذي حظيت به.

قالت لي:

- حان الوقت،

وكانها قالت لي حانت نهاية العمر، أو نهاية العالم،
أو أي شيء يشبه انتهاء الإنسان...

قمت والرجفة تسلسل قلبي وكياني. تحركت نحو
الحمام وخفت أن يواجهني وجهي في المرأة بكل تلك
الاحتمالات السيئة التي يمكن أن تكون حظي.

لم أرفع عيني نحو المرأة، غسلت وجهي، وحضرت
نفسي وكانني أتعامل مع شخص آخر...

في الرابعة والربع...

كنت أنا، المحجبة، التي يفترض أن تكون شخصاً هيناً
طبيعاً لا يحسن غير الرضوخ لأنه لا يملك غير ضعفه
كوسيلة للعيش.

كنت متأهبة في ذلك الفجر البارد للسفر مع حبيب ابن
عمي مصطفى، وهو طالب في كلية الصيدلة بقسنطينة.

أثناء الطريق لم تتبادل الكلام، شعرت بالبرد، فتكلمت

بشايي وقد هاجمتني أفكاري الجديدة تلك؛ إنني ذاهبة إلى قلعة أحلامي بحفائب فارغة، تاركة أمتعة ذاك الحلم في زوايا البيت على المنضدة التي طالما أنستها بسهر الليالي، مجبورة على تقبلي كلية الطيب قدراً... بدل كل الاقتراحات التي عرضتها على الجميع فقد أردت الصحافة كماقتراح أخير عارضه خالي لأن معهد الإعلام في العاصمة، والوضع الأمني للبلد لم يكن مناسباً للتنقلات الطويلة خصوصاً بالنسبة إلى فتاة...

ولهذا سافرت كما لو أنني أرسل شخصاً آخر يحل مكاني في كل شيء. بل شعرت أنني مسافرة نحو الكابوس، وأن مزرعة أحلامي الوردية التي عنيت بها طويلاً هبت عليها عاصفة برد قوية، فلم يبق منها غير أماكن الذكرى وأعواد الموت.

إنها الرابعة والدقيقة الثلاثون.

شعرت فعلاً أن الزمن يتحرك نحو الصفر، والعمر أوشكت عقاره أن تتوقف.

إنها السابعة عشرة وثلاثة أشهر وبضعة أيام ولحظات، وفجر بارد لا يهتم كثيراً بما حل بي...

كان حبيب يضحك بين الفينة والأخرى عن حديث بعض الفلاحين الذين كانت أصواتهم عالية مثل كل أهل

الرجال، أما تعليقات الطلبة فيقدر ما كانت مضحكة بقدر ما كانت بايعة ولها معانٍ. قال حبيب محاولاً إدماجي بالجو:

- غداً... ستسألين نفسك مثلي تماماً، لماذا يسافر هؤلاء الفلاحون إلى باتنة، ميكيرين، مزاحمين الطلبة على أماكن الجلوس فيفضي معظم الطلبة ستين كيلومتراً مسافة الطريق وقروفاً؟ ما الأشغال المهمة التي تجعلهم ينهضون باكراً، وينافسون الطلبة خصوصاً على هذه الحافلة، ولن تجدي جواباً، لأنك ستحيين حكايهم الساذجة، وستدمنيتها حدّ نسيان سؤالك الأول، وتشتاقينها في بعض الأحيان.

نظرت إليه، ثم نظرت إلى ساعتى - إنها الخامسة والدقيقة الثلاثون، العمر يتقلص نحو نهايته.

غريب جداً أنّ الحظ لم يحالفني في البكاء هذه المرة... قلت له:

- أريد أن أبكي.

وقد استغربت كيف فهمني بتلك السرعة، قال:

- لماذا تهولين الأمور، أنظري إلى طالبات الجامعة، قلة منهن لا يرتدين الحجاب، والبقية بالحجاب... .

قاطعته :

ما يزعجني هو أنني ارتديه خضوعاً لقرارهم، دون أي إيمان به، إنني أنتكر من أجل أن يدعني والدك، وباقي رجال العائلة بسلام، إنني لا أرضي الله بهذا، ولكنني أرضي كائنات لا تفوقني ذكاء.

- إنك تخطئين، تذكرني أنني رجل من رجال العائلة، ولا يهمني نوع اللباس الذي ترتدين، بالعكس يهمني أن تكلمي دراستك، وها أنا أرافقتك من أجل التسجيلات... .
سكت قليلاً ثم غمزني قائلاً:

- هيا ابسمي إن الله غفور رحيم.

كان بوذي التوغل معه في نقاش طويل لكن رغبتني في الكلام كانت ضئيلة جداً، كنت بحاجة إلى التحاور مع نفسي ولهذا ظلّ الكلام يتدفق في رأسي كمطر شتوي مجنون، حجب عني ضجيج الحافلة، وطول الطريق، وحين توقفت الحافلة، توقفت مطري.

لقد بلغنا باتنة، ووجدتني أتحرّك بحجابي مع حبيب مثل امرأة قديمة تتبع زوجها إلى مكان تجهله.

واجهني بناء عليه اسم كبير «أسحار».

سألته: ما أسحار هذه؟

أجاب: إنها أروقة مثل «سوق الفلاح».

قلت له:

- كيف يخترع الجزائريون أسماء كهذه لمحال تجارية؟
«أسحار» اسم يوحي بإمكان رومانسي لا صلة له بالنزيت
والصابون وما إلى ذلك...
ضحك قائلاً:

- هذا ما يوحيه لك الاسم، ذات يوم قرأه فلاح
بصعوبة، أسحار، وسألني: أش مني يَلْ أَوْسَحَارْ ذَائِي (يا
بني هل يوجد ساحر هنا؟).

خلفيته البربرية جعلته يقرأ الكلمة هكذا، أما أنت،
فتمثلين الجيل الذي خضع للتعريب. هو ما زال «ذ
شاوي» رغم استطاعته قراءة اللغة العربية، أنت على رأي
ابن خلدون «إذا عُرِّبَت حُرَيْت» نُطِبَت خِيمة الرومانسية
العربية في رأسك على أنقاض ما تبقى من بربريتك.
قلت له ونزع من الغضب انتابني:

- أنا لا يهمني الماضي يا حبيب، أنا ابنة اليوم،
والبربرية لا تعني لي أكثر من انتماء عرقي لا علاقة له
بأفكاري وانتمائي الوطني والديني...
قأطعني:

- وماذا يا لويزا... لاحظني أنه حتى الانتماء لا
يريدونه أنتي حسب تعبيرك هذا، وحين تكبرين قليلاً
ستفهمين أنه حتى هذا الانتماء سيحاولون اقتلاعه.

قلت له:

- ومن يحاول اقتلاعه؟

قال:

- العرب.

قلت:

- كلنا مسلمون يا حبيب، وجزائريون، والباقي لا

يهمني.

قال ساخراً:

- مسلمون وجزائريون... يا مسكينة... مسلمون

وجزائريون «قولها في الحمام». إننا نسخر من تاريخنا

حتى في الكتب المدرسية. هل تعرفين من هي الكاهنة؟

قلت له:

- حبيب... من لا يعرف ذلك. إنها ملكة البربر في

فترة الفترحات. قال وهو يواصل سخرته:

- هيه يا لآلة (نعم سيدتي) فترحات؟ ففكري قليلاً...
شغلي مخك... الكاهنة اسم بربري؟

قلت:

- ربما لُقبَت بالكاهنة.

قال وكأنه استحكَم على نقطة ضعفي:

- لُقبَت... يعطيك الصُحة... ألم يقل الله: ﴿وَلَا

تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؟ لُقبَت فضع اسمها الحقيقي من التاريخ،

نحن شعب لنا تاريخ، لنا كيان، لنا جذور، لكن أين مكاننا في التاريخ... تخذي مثلاً آخر «كُسيَلة» أليس أميراً بربرياً؟

أجبت:

- بلى.

قال:

- ماذا يعني لك «كُسيَلة»... ماذا يعني اسمه في القاموس البربري، أجيبي؟

قلت:

- لا أدري، ربما كلمة قديمة جداً لا نعرف لها معنى؟

قال:

- لا قديمة... لا عَمَّار بُؤُوزُوز... «كُسيَلة» تصغير سخيف أطلقه «عقبة» على أمير البربر «أَكْسَل» و«أَكْسَل» مفهومة تعني أسداً. أهذه هي الفتوحات؟ والنبي الكريم عليه الصلاة والسلام قال: «ارحموا عزيز قوم ذل»... تاريخ العرب كله كذب في كذب «يا لآلة»... لقد كتبوا التاريخ بغيرورهم... ونحن متهمكون بالتعريب، أفيقي يا ابنة عمي، التعريب لا يعني تعريب اللسان في هذا القرار، إنما توسيع «الخارطة العربية».

كان قد تعاطف معي، ولهذا أسهب في فتح حديث من

كل ملاحظة عسى أن يبعد عني كأبني، لكنني بسداجة طفلة
صغيرة بدأت أتعلق بحديثه، كنت ككشمة تودّ النجاة من
حريق فملت نحو دفته... .

ويكفي أن باتنة استقبلتنا ماطرة، غير مبالية، رمادية
وعابسة ترمقنا بمبانيها الفاخرة بقسوة لا تليق بتاريخها
الكبير... .

وقد أمضينا النهار كله في إتمام إجراءات التسجيل في
كلية الطب، ثم الحصول على غرفة بحي اختصر اسمه
بثلاثة أحرف لاتينية «CFA» لأنه في الحقيقة لم يكن حياً
مخصصاً لطلاب الجامعة، ولكنه مدرسة للتكوين المهني
حوّلت للحاجة إلى معهد للطب البيطري وحي جامعي
للطالبات... .

أصرت العجوز على الجلوس أرضاً في الرواق، أما
 بائع التذاكر فقد طار صوابه، قال لها:
 - يَا نَانَا أَكْمُرْ سُوْكَرُوْازْ أُجْ يُوْذَانْ أَدْ عَدَانْ.
 (يا جدّة، انهضي من الرواق واتركي الناس تمر).
 لم تقبل، أمسكت برأسها وهي تجلس القرفصاء وقالت
 له:

- آشْ مَوْلَادِي إِينْتَأَسْ أَيْقِيلْ.
 (يا أبنائي، قولوا له بأن يتركني وشأني).
 وأغلقت كل سبل التفاهم بينها وبين الشاب الذي كانت
 ملايسه مثيرة للضحك لضيئها على «جته» الضخمة؛ احتضن
 وجهه ولم يعد يمتلك نفسه، فيما تدخّل السائق ليحل
 الإشكال ولم يحله. أما الركاب فقد تجاهل بعضهم ما
 يحدث كالعادة، وبعضهم ظلّ يتابع الموقف من أجل
 الضحك.

وحين لم يصل الثلاثة إلى حل، قام شابان من طلاب
 الجامعة وحملها بالقوة، ووضعها في آخر الرواق،
 وظلّت تشتم وتحذث نفسها دون ملل، لكن دعواتها السيئة
 تلك أثارت السائق عدة مرات، ردّدت غير مرة:
 - يَا ربي أَضْمَضْرَانْ الكَارَأَيَا... يَا رَبِّي ضَرْبِيْثْ...
 (يا رب، لتقلب هذه الحافلة... اقلبها يا رب).

لكن الطلاب وأغلب الركاب لم يكثرثوا لما كانت
تردد، بل أحبوا كل ما كانت تقول، لأنها كانت مشيرة
للضحك.

أنا الأخرى تفاعلت مع ذلك الجو، فاختلَفَ طريق
العودة بل ضحكك، لأنَّ العالم اتسع قليلاً بالنسبة إليّ،
حين رأيت أولئك الناس كيف يأخذون الدنيا من طرفها
اللين.

لحظتها...

رأيت حبيباً كما لو أنني أراه لأول مرة، وتناسيت
تماماً، أنه ابن العم الذي أمار في كل مرة يزورنا فيها
كيف أسلم عليه، أغلَى الكتف حسب طريقتنا التقليدية أم
على الخدين على طريقة أبناء المدين، أم أصاحده؟ وكان
حتماً بخار الحيرة ذاتها، فقد كُنَّا ترتبنا الارتباك نفسه،
فتلامس يدانا على قلق أو يتقاطع رأسانا لتقبيل الكتفين
بكثير من الخجل والحياء. أما الحديث فما كان يجمعنا
غير تلك التحية المقتضية، وتلك الجمل المختصرة عن
أحوال الدراسة لا غير.

في ذلك المساء...

ونحن نتمشى نحو البيت، شعرت أن شقاره يضيء

الشارع، الشعور الذي حرك أقلام القلب، وجعلها تسكب الألوان بعثية مذملة على بياض أوحى بتقاطيع حب. لم أفهم ما الذي حدث بالضبط...

فقبل أربع وعشرين ساعة كنت أشعر أن السموات يترصدني من كل الجهات... فإذا بي أعود مع حبيب وقد نسيت أغلب الهم، ثم غير ذلك كأن حضور حبيب يهب مثل نسيم يفرح عطرًا على مواطن مشاعري كلها. كان الليل هادئًا في بيتنا حين استسلمت للنوم.

وحين صحت وجدتي أخرج من جسدي المتعب بقليل من الهموم. حجابي كان ينام على الأرض إلى جانب السرير مثل قطعة ارتخت وهي تنام قرب مدفأة، وقد تخيلت أنني لن أرتديه مرة أخرى ولهذا دعسته بقدمي وأنا أنزل من سريرى متوجهة نحو الحمام، محاولة ألا تراودني أسئلتى المفزعة تلك، بالتفكير في حبيب، تلك الأسئلة التي فُضت مضجعي منذ أصدر والدي قرار ارتدائي الحجاب، تذكّرت غرايماتي الصغيرة مع محمود...

محمود الذي حرك عواطفني قليلاً، حين كنت أتحدّث معه أستاذ التربية الإسلامية فنجلس معاً، وكنا نغشّ معاً في امتحانات التاريخ والجغرافيا والفلسفة إذ كان يحفظ نصف الدروس وكنت أحفظ النصف الثاني، وننقذ بعضنا بعضاً في الأسئلة الصعبة...

وكان شيء من اثنين يشدني فيه، تمرده أو ذكاؤه؛
وأحياناً يخطر ببالي أنني أحبه لأنه يشبهني. كنا الأقوى
في الصف.

كان أقوى ذكراً، وكنت أقوى أنثى، وقد جمعنا تلك
الدائرة الصغيرة الضيقة بإحساس التفوق.

لكن ذلك اليوم لم يكن عادياً، إذ إن دائرة حبيب
اقتحمت مجالي، وجدنتي محمية من طرفه في البداية، ثم
منبهة بأحاديث التي كانت تشبه قصص «أرلوكان»، بدأت
بأحاديث عن الجامعة وحياة الطلاب وانتهت بأقاصيص
الحب التي تزخر بها دائرة الغضاء الجامعي...

كان قد توصل إلى إحداث ما أنساني ذاتي بعد أن
غرس رايانه على أراضي خلال مقرنا معاً أسبوعياً، ثم
تأقلمت مع حجابي، وبدأت المدينة تتوغل إلى داخلي
بطقوسها الخاصة، صرت أشم صباحها الجاف، وأجد في
سماتها عطراً سريعاً متميزاً، وفي نهاراتها يجتمع اليأس
واللامبالاة بالثراء الزاحف على الأرصفة.

أحببت غرفتي المطلّة على «العرقوب» - يا للأسماء
الغريبة التي يخترعها الطلبة، «العرقوب» يعني الهضبة في
اللغة، ولم يكن له أي علاقة بكلية الحقوق والأدب، لكنه

طفنى بحضوره في القاموس الطلابي، وصار الاسم
المعترف به للكلية. . .

أمسيات «العرقوب» زاخرة بالحب، وكثيراً ما كنت
أجلس أمام النافذة مثل غيري لإرواء فضولي ومتابعة
مشاهد الحب على الطبيعة.
غير ذلك. . .

كان قد احتأني حبيب كفكرة لعدة أسابيع تشبه الحجز
تحت ذمة التحقيق، بعدما توزّطت معه في شباك تلك
السخافات التي دون مراعاة مني لأبعادها، وجدتها تلتصق
بتاريخي كندبة بشعة في الوجه، وتصبح عانة مستديمة في
ذاكرتي لا يمكن استئصالها. . .

حبيب كان يعرف بالضبط ما الذي يجعل طفلة مثلي
تقفز فرحاً، فيدغدغ مشاعري بتلك المفردات التي تكتسح
بسرعة مساحات الفحط الممتدة في داخلي.

كان يعرف كيف يتسرّب إلى مواقع البرد في دمي،
ويضرم فيها النار، لدرجة حسبته فيها عفرينياً أو جنياً
غفلت عن رؤيته كل تلك السنين.

كان يعرف أيضاً كل السبل المؤدية إلى ضعفني
المستجد به، وأظنني أخطأت حين فتحت له كل أبوابي،
أخطأت حين تصوّرتُه أملاً لنجاتي من بيت يغتصب حرمة

الأعمام، ويملاًء حزن أمني والشائعات عن والدي...
والذي كان يؤلمني جداً هو أنني حسبته مصدر الدفء
الذي يلغي ذاك الجدار الذي بناه المجتمع بيني وبين
والدي أو بيني كجيل وبين الجيل الذي اختبر الحياة.
«سَوْمٌ بَحْرُكُ» هذا ما يفعله كل جيل بمفرده عندنا،
يصارع المرح حتى تنهكه الأخطاء، ليقل إن التاريخ يعيد
نفسه. اصطادني حبيب بتلك الكلمات الرقيقة التي تفرّد
بها.

«بوناسيرا» كان يقول لي حين نفترق كل مساء نعود فيه
معاً إلى آريس، على أمل لقاء جديد في بداية الأسبوع،
يُخيل إليّ أنه يتأخر كثيراً حتى يُصبح الشوق كائناً لا
يحتمل البقاء في صدري فأحبه...
وأحبت حبه ذلك للحرية، والاستقلال، والظهور،
والانطلاق والتبعثر في السماء، يحضرني ما قلناه ذات
يوم:

- اشتقت لرؤية شعرك تداعبه النسمات.
- أنت مجنون.
- دعيني أراه قليلاً ولا تمنعيني.
- هنا؟ في الشارع، أمام الناس؟
- دعيني أراه دائماً إذن.

لا أدري لماذا ظننت أن هذه دعوة صريحة لأشارته
الحياة، سأنته وقلبي يتفنى آثار كلماتي:

- هل تحب فعلاً أن تراه دائماً؟

- أريده أن يكون لي، أن أستحم به كل مساء وأتركه

يكتب الحب على جسدي...

أظنه قد اعترف بما تحويه مشاعره.

وقد ظننته أيضاً أنه قد بدأ يخطط للحب على أمد

طويل حين قال لي ذات يوم وهو يطرقني: Je veux

l'aimer, Je veux te chérir

(أريد أن أحبك)

... لكن...

التاريخ لا يتعثر إلا هنا عند أقدامنا.

وهنا فقط، الطرق كلها تؤدي إلى الهاوية، «روما ليست

لنا، كما يقول خالي، وما يشبه روما شيء لا يمكننا أن

نقتيه لأننا نسلك دروب الشك».

هنا فقط نصل إلى قبورنا، ونصل زحفاً بعد أن تلعب

حفر الطريق بأجسادنا.

كنت أظن حبيباً فهمني، واستوعب أسباب بكائي على

ذراعيه، وقد توهمت أن أحضانه تلك، إنما لاحتوائني،

ومسح آثار اكتتابي.

بل وصدقت شفثيه اللتين لامستا جيبني بكلمة حب،
وأمنت به رجلاً سيغتر واقمي.

عدت في ذلك المساء الذي أذكره جيداً حقيفة كسحابة
صيف، وبمجرد أن فتحت لي زميلتي باب الغرفة التي
نفتسمها معاً حتى احتضنتها وقبّلتها، ورقصت في ربيع
الغرفة مثل المجنونة ثم ارتيمت على سريرى مسافرة في
حلمي ذاك.

لكنني كنت أحلم بسرعة تفوق المعتاد والتي دائماً ما
تكون سبباً في تلك الحوادث المميتة للمشاعر.

رحت أحكي لسماح ما دار بيني وبين حبيب، وصفته
لها، وهو يحتجزني بذراعيه، ويطل عليّ من علوّ بأنفاسه،
وعينيه اللتين خلتهما تفهماني... وكيف حدثته عن تعبي
من شرود والذتي، من حزنها، من عجزى وعجز أخوتي
من تحريك حجر الحزن من على كتفيها، وعن قرظي من
بعد والدي، ومن اتهاماته لنا جميعاً بشئى التهم التي
يخترعها بعض الأقرباء والمعارف كوسيلة إضافية للتقرب
منه، موهمين إياه بخوفهم الزائد على مستقبلنا... شكوت
له شكّه الدائم فينا، إذ يكفي أنه منذ بدأت الدراسة،
اتصل أكثر من ثلاث مرات مهدداً أنه كألف من يتجنس
عليّ وأن أخباري تصله كاملة.

أخبرت حبيباً بتلك الخيبة التي أشعر بها، أمام أب كثيراً ما تمنيت أن يكون حنوناً، قريباً مني، يزرع الثقة فينا بدل ذلك القنوط والريبة في علاقته معنا.

حدثته عن أحلامي، عن بيت سعيد أرغب فيه معه، عن أطفال أحبهم وأعلمهم القوة بدل الضعف، والشجاعة بدل الخوف.

كنت أظني أتحدث عن بطل فيما سماح كانت تسمعي بقليل من الاهتمام فقد كان تركيزها على ركوة القهوة وإبريق الحليب على النار، وحين أنهت تحضيرهما، ضحكت، وتقدمت مني بهدوء ثم قالت:

- إنك لا تعرفين الرجال، ولا تعرفين شيئاً عن الدنيا.
سألتها مستغربة:

- عمّ تتحدثين؟

أجابت وهي تقدم لي كوب الحليب الساخن مع قطعة خبز مدهونة بالزبدة:

- عن غيالك.

قاطعتها:

- سماح!

فقاطعتني هي الأخرى:

- سماح تعرف أكثر منك، أنظري إلى هذا العالم، إلى

هذا الكون، إنه مبني على نظام، وهذا النظام إذا حدث فيه خلل صغير، حدثت الكارثة. أنظري إلى النجوم ننم بضوئها الذي يصلنا منذ آلاف السنين دون أن نفكر. إننا ننظر إلى الماضي، ويبدو الأمر صعب التصديق، وربما ما يخطر ببالنا هو أن هذه النجوم مثل مصابيح الكهرباء التي في بيوتنا تنطفئ في النهار، وفي المساء تمر عليها كائنات طائرة تكبس على أزرارها فتضيئها الواحد تلو الآخر.

لم أفهم ما كانت تقوله، أو ما تقصده، هزرت رأسي قائلة:

- أنا أحدثك عن حبيب، وأنت تلتقين عليّ محاضرة عن النجوم. فقالت:

- لأن الناس كالنجوم يا لويزا، كالكائنات التي تبعج بها الأرض، كالفصول، ككل ما تزخر به الطبيعة، إننا جزء من هذا الكون، وكل ما نختلف فيه عن بعضنا بعضاً هو أشكالنا وأعمارنا ولغة الخطاب. تولد، نكبر، نبتهج بالحياة، وحين نشيخ نخاف من الموت، ولكننا نموت...
- وما علاقتي أنا وحبيب بهذه التفصيلات؟ سألتها.

أجابت يهدوئها الغريب:

- لأنكما جزء من هذه التفصيلات، أنت استمرارية

لأمك، أمك استمرارية لجدتك، وهكذا هي سلسلة الإنسان مثل ضوء النجوم. تأقدي أنّ حياتك، مهما كنت دقيقة في اختيار شريك عمرك ستشبه حياة أمك... .

- أنت غير معقولة يا سماح، أهذا كل ما أوحاه لك ما حدث بيننا؟

قالت:

- وما الذي حدث بينكما؟ أصغى إليك، وقبّلتك، وقال لك: «أنا لست مثل الآخرين»... حين خلق الله آدم وجعله سيداً في الجنة ضجر لأنه وحيد، فخلق له حواء من ضلعه، فسّر بها أول الأمر، وبعد فترة ملّ منها، فقال لربه: «خذها عني»، ففعل الله ما طلب، لكنه أرادها بعد غياب، فقال لربه: «أعدّها إليّ» فأعادها، وظلّ على هذه الحال ثلاث مرات، وفي آخر مرة حدّره الله من هذه اللعبة، فخيّره بين أن تظل معه إلى الأبد، أو تختفي من حياته إلى الأبد، فطلب أن تظل، وهذا ما حصل لكن هذا لا يعني أنّ حواء ظلت سعيدة معه. هذا آدم الذي سجدت له الملائكة فما بالك بحبيب ابن عمك!

- أنت مخيفة يا سماح.

- أنا واقعية.

- لكنه صادق، ومن دمي، وأشعر أنه استوعب معاناتي.

سخرت مني قائلة:

- استوعب؟... يا «عبيطة»، إنه يكتشفك لا غير،
وحين يزور خباياك، ويعرف كل شيء، لن تصبحي مشيرة
بالنسبة له، سيستيقظ «عزق» والده فيه، وسترين عمك فيه
يحاكمك على كل تلك التصرفات، اسمعي كلامي «اللي
فأنتك بليلة فأتك بحيلة».

كانت سماح تكبرني بأربع سنوات، وعاشت أكثر من
تجربة حب كلها انتهت بالفشل.

هذا قدر ربحا، لكنه شيء لا ينسى ولا يوضع جانبا
حين تحضر تجارب جديدة.

قالت لي: «الطالبة الجامعية في الجزائر لا تمثل أكثر
من امرأة مخيطة» وكانت تقصد أكثر من معنى وحقيقة.

أنا... الصبية المغلفة بأحلامي، ظننتني أعرف الحياة
بشهادة البكالوريا وشبه تجربتي حب لما تتجاوز مرحلة
تحضير المقادير لطبخة ستحترق...
الواقع...

إنني وضعت قدمي على موقد من الجمر، دون أن
أعرف كيف بإمكانني تخظيه أو الخروج منه بحروق قابلة
للشفاء.

كنت أظن حبيبا رجلا لا يمكن لكلامه أن يختلف عن

الرصاصة التي تغادر موضعها، فإذا به لم يصب غير فقايع
التهمة الهواء. لقد أردت لعلاقتنا أن تكون متينة وصادقة،
وأشد من غضب العواصف التي قد تأتي من القيل
والقال.

أردت كطفلة تخاف أن تؤخذ منها هديتها، أن أسابق
الريح، فجلست إلى أوراقي، وتصرفت كما يجب أن
تتصرف فتاة ترغب في الحياة دون أقنعة أو مزيد من
التعديلات، كتبت رسالة إلى والدي... لأول مرة!

Cher Papa

Je ne sais comment commencer, mais

لا أدري كيف أبدأ لكن

en ce moment je ne me sens proche que de toi

في هذه اللحظة، لا أشعر بنفسي قريبة إلا منك

Je veux ton conseil, à propos de ma relation

أريد نصيحتك فيما يخص علاقتي مع

avec mon cousin Habib et qui je pense sera

ابن عمي حبيب، والتي أظن أنها ستكون دائمة

durable. J'aimerais bien que les choses

أتمنى أن تكون الأمور واضحة

soient claires entre nous et je souhaiterais

بيتا، وأرجو

que mes nouvelles ne te parviennent pas

أن لا تصلك أخباري من غيري

de quelqu'un d'autre, car je crains qu'elles

إذ أخاف أن

soient mal comprises

تُفهم خطأ

s'il te plaît j'attends ta réponse

من فضلك، أنا في انتظار إجابتك

Ta fille Luisa

ابتك لويزا

تحولت السعادة بعد إنهائي كتابة الرسالة إلى فرس
جموح هزت قفص الصدر، فلم أستطع النوم بعدها.

سررت لأنني استطعت أن أكتب رسالة بالفرنسية، اللغة
التي لا أتقنها، ولا يتقن والدي غيرها، ولكنها أيضاً اللغة
التي يمكنني أن أودع فيها كل ما يخجلني دون أن أشعر
فعلاً بالخجل... بكتابتي الرسالة شعرت أنني ألفت
الكثير من المسافة بيني وبين والدي، ولهذا بقيت أنتظر
قدوم الصباح لأرسلها خوفاً من أن أختير رأيي إذا تمت
وصحوت على الرغم من أنني فكّرت في ردة فعل والدي

التي قد تأتي على عكس ما أتخيل. قلت لنفسي قد يغضب، ثم قلت ليغضب، لكنني لن أكذب عليه وسأظل على صراحتي حتى ينكسر جدار الجليد الذي يفصلنا وهذا أبسط ما لدي عند من حقوق، فلطالما أردت أباً يرشدني بحب، يخاف علي لا مني ومن وجودي، يسمعي أنا، لا أن يلتقط أخباري من هنا وهناك، كأنني إحدى بنات جيرانه. أردت أن يعرفني، لا أن يتخيلني في صور النساء اللواتي عاشنهن، أن يسألني عما ترغب فيه نفسي من مشاعر، لا ما أرغب فيه من أشياء يملأ بها خزانتي ثم يأمرني أن أغطيها بحجاب...

ربما...

حلمت أكثر مما يجب بمعبر سري يقودني إلى الطيبة التي حتماً لها محباً ما في قلبه، وطمنت أن اللغة التي تخونني حين يكون الخطاب مباشراً بينما قد تسعفني حين تصله في هدوء رسالة.

ولهذا تحمست حتى شعرت أنني أتمزق من ذلك الشعور الذي كان يملؤني فرحاً وخوفاً معاً.

ولهذا أيضاً ترددت وأنا أقف في ذلك الصباح الباكر أمام صندوق البريد المركزي، بين ما قد يحدث مخالفاً لرغيتي، وما قد يحدث كما أريد.

أمسكت بالرسالة كأنما أمسك بطائر سيفلت مني،
 وحين خفت أن أترجع رميتها بسرعة في الصندوق وأدرت
 له ظهري. كان مصيري قد تفرز بعدما، حتى وإن أدرت
 له ظهري، ولم يكن بإمكانني أن أسبق القدر.

فبعد يومين التقيت بحبيب، وقد كان كلانا يخبئ
 مفاجأة لثاني؛ أما أنا فقد كان الشوق يملأني وخبر
 الرسالة طنته مفاجأة جميلة له...

وما إن بلغنا مخبأنا المعتاد، حتى طرقته وغبت في
 رائحة عنقه بين الحلم والشهرة، ووددت لو رفع رأسي
 قليلاً إليه، وناولني أسرار ذاك الجسد الداهيء عبر شفتي،
 لكنه تحدّث كثيراً... كثيراً جداً دون أن أستوعب شيئاً،
 وحين استوعبت لم أجد أرى حياً؛ كانت عيناى قد تأهبتا
 للبقاء، وصوت سماح يدوي في رأسي «سيستيقظ عرق
 والده، وسترين عمك فيه يحاكمك على كل تلك
 الاعترافات».

حين بدأ يحاكمني فعلاً:

- أفكر دائماً في اندفاعك يا لويزا، منذ شهرين كنت
 تبكين من ثقل الحجاب، واليوم تجددين اللذة في الاختلاء
 معي تحت أشجار الجامعة مستحسنة سترة الثوب لهويتك،
 وفيما والدك يفكر أنك تدرسين، ها أنت تخونين ثقتي
 بشكوى أفراد عائلتك وتقبلي.

قلت: - لا، بصوت عالٍ ولم أستطع التعقيب على كلامه فيما واصل هو الكلام:

- أريد أن أعرف كيف تملكين الجرأة على فعل ذلك، ما أنا متيقن منه هو أنك...

مصدومة كنت، وأنا أتلقى النار في رأسي.
لم أقم على الوقوف، أو على الكلام، أو على الصراخ، أو على إسكاته، أو على الهروب منه، كأنما وجودي في ذلك الموقف، ودخولي في علاقة معه منذ البداية إنما لسماع ما قاله وترسيخه في أكثر أماكن الذاكرة أماناً.

ثقل رأسي، وشئت رجلاي أكثر من ثلاث ساعات، وأظنتي بكبت كثيراً قبل أن أنتبه إلى أنني وحيدة في المكان، وأن المساء قد زحف شرساً على كل شيء حولي، ولو لم أشعر بالخوف لما تحركت وربما من حسن حظي أنني لحقت بآخر حافلة متوجهة إلى الحي.

حين بلغت باب غرفتي شعرت أول الأمر بالخوف من مواجهة سماح وبالشجول من الوقوف أمامها عارية أخشى عورتي بأسمال اختيار خاطيء وحب فاشل.

فتحت الباب، كانت الغرفة معتمة، أضأت، لم أجد

أحداً ففكرت أن سماح قد تكون في مطعم الحي تتناول
عشاءها أو بالـ «A22» عند صديقتها كريمة وصليحة، وقد
أراحني ذلك إذ أغلقت الباب وانفجرت باكياً، وأنا أرذ
جمته الأخيرة التي تركها لي تذكيراً لا ينسى، قالها لي
بالفرنسية:

(إنك تفكرين برجليك) Tu raisones avec tes pieds!

- (بالتأكيد) certainement حبيب (قلت لنفسك) وإلا ما
كنت أحبتك وصدقتك، واحترمت ندالك ونياتك السيئة.
عاطبته كأنما يقف أمامي، وقلت له ما كان يجب أن
أقول حين كان كذلك.

أفرغت حنجرتي من تلك الغصة المتورمة، ومن مرارة
الصدمة وربما بكيت كثيراً قبل أن يقاجتني صوت سماح:
- اغتسلي بالماء، بدل أن تغتسلي بدموعك مثل
الأغبياء.

انتبهت إلى أنها ثقف ورائي بلا مبالاتها المعتادة،
وكأنها تعرف مسبقاً ما حدث لي.
أدارت لي ظهرها وواصلت تهكمها الجارح، وهي تفتح
إصبع «شوكولا» وتغضم منه قضمة، الشيء الذي جعلني
أثور في وجهها مرة واحدة.
- إنك معقدة، وعقدك لن تفكيها بالتهكم علي.

ثم هرولتُ نحو الباب وخرجتُ... .

لم يكن بإمكانني أن أتحمّل تعليقاتها الغريبة تلك، إذ كانت إلى حدّ ما تشبه ما يمكن أن يكون جملة الأعمام والعائلة والشارع... . والضمير، والناس الذين لا يابهون بحزن المرء حين تختاره المصائب دون غيره، ولكنها أيضاً كانت شبيهة بالمعجماً الذي لا خيار لنا باللجوء إليه حين تمطرنا السماء بالثنايل والغضب. ولهذا أمرت منها أحياناً، وأحياناً أخرى أبحث عنها لتكيس لي على أضرار الضمير، وأشتاق إليها كما يشتاق أي مازوشي إلى ضربة سوط، كما لو أن القدر اختارها لي هي الأخرى لثلاً أحرّر من سجنى دفعة واحدة.

أعود إليها دائماً، وأفتح لها صناديق فرحي وخيبي معاً وأنتظر منها تلك التعليقات الحادة، الجارحة، المسيلة لدمي.

دائماً أعود... .

ولهذا لم أجد غيرها أحدثه بعد ساعات طويلة قضيتها جالسة وحيدة في حديقة الحي فعدت إليها أجر ذيل الخيانة الذي حقاني إياه حبيب في رأسي.

استجذت بقسوتها تلك:

- حبيب كان يلعب معي لعبة قلرة يا سماح.

- كل الرجال يلعبون هذه اللعبة، فما الجديد؟ صدقيني حين رأيتك تبكين، ربطت بكاءك بحبيب مباشرة.

- كأنك تعرفين ما حدث؟

- حذرتك فما سمعت الكلام.

- ولكنني كنت صادقة إلى أقصى حدّ معه، إلى أقصى حدّ...

رويت لها ما حدث وقد عاودتني نوبة البكاء، وشعرت

أنها لأول مرة تشفق عليّ وتلين لهجتها معي:

- ما يجب أن تغفري فيه الآن هو أن ما كان بينكما انتهى.

- إنك لا تفهمين... لقد كتبت رسالة لوالدي أشرح له

فيها كل شيء، ستكون حتماً بين يديه في ظرف أقل من

أسبوع، أنظري إلى أي مدى كان صدقي، وإلى أي مدى

كان خبيث، ترى ما الذي سيحدث، حين يسأله والذي عمّا

كان بيننا؟

- لويزا، ما الذي حدث بينكما، لا تقولي لي إنك

ذهبت معه إلى أبعد من القبلة...

- القبلة في حدّ ذاتها كارثة بالنسبة إليّ اليوم.

ابتسمت، وتنفست نفساً عميقاً وأطلقت زفيراً ذا معنى

ثم قالت:

- مغليش «بؤسه تشيخ ويديها الريح» كما يقول المثل.

- عن أي مثل تتحدثين يا سماح، ما تحويه رسالتي اعتراف بأنني لست أهلاً للثقة، غداً سيُعرف كل الأعمام والأهل أنني ارتعيت في أحضان حبيب، وغداً سيُعرف والدي أنني أركض وراء رجل لا يريدني لأنني بمفهومه امرأة ساقطة، لن يصدق أحد أن حياً كان يعدّ لي مصيدة تحت نزوته.

- تفكرين بأشياء بعضها مستحيل حدوثه، وبعضها يمكن علاجه، تتمنين ربما لو أن ساعي البريد يصاب بالجنون قبل بلوغ العنوان الذي يقطن فيه والدك، فيرمي بكيس الرسائل في النهر أو ربما بانفجار الطائرة التي تنقل الرسائل إلى فرنسا، ولكن هذا لن يحل المشكلة، وفي الواقع الحل الوحيد لدينا هو أن ننام ثم نثقي أنه لن يهيننا إلا ما كتبه الله لنا.



مرّ شهر هاديء دون حدوث الهزة التي توقعت.
اهتزّ البلد، ولا شيء حدث بالنسبة لي.
تجاهل والدي الرسالة ربما، وربما لم تصله، وربما فاقت خيبته في حدود خياله فاعتبرني غير موجودة...
حتى مكالماته لغابت... والدتي أقسمت أنه تزوّج، لذلك الانهماك المفاجيء عنا لا يمكن أن تكون وراءه إلا امرأة

ذات حضور قوي في حياته . أخوتي لم يكن يهتمهم الأمر كثيراً ، حتى إن «وداد» قالت لي بالحرف الواحد : «البتة ينسانا دائماً ، يُريح ويستريح ، لم نعد بحاجة إلى أشيائه التي يرسلها إلينا» لكنني لم أرغب في تصديقها إننا جميعاً بحاجة إليه . . .

حين توفيت جدتي ، رأينا والدتي تنهار ، كانت تعرف نفسها وقد أعيأها داء الخجل والحياء من كل شيء . تداري غضبها ورفضها ، ورغبتها تحت تلك الطيات في أسفل الجبين .

كنا بحاجة إليه ليغظي ضعف والدتي أولاً ثم ليملائنا بحضوره .

كُنَّا . . .

الأحلام دائماً لا تتجاوز مدارات رؤوسنا الصغيرة ، لها نحن نقف جميعاً خلف السقوط بخطورة ، مشغولين عن عواطفنا بما حلّ بالبلد .



ها هي أقدامهم تنسحب.
 لا شك أنها تنسحب، فلم يعد للشجرة مكان لها في
 البيت الذي أسست، بعد أن جاءتها الضربات. لم يعد
 للتاريخ والانتماء مكان في الذاكرة... ما دام قد جاءهم
 الأجل...

كنت لا أعي بالضغط ما يحدث لولا الحماسة التي كان
 خالي «حميد» يحرك بها انغزالنا.
 قال لي في ذلك المساء الفاتر ونحن أمام شاشة
 التلفزيون نتابع مسيرة «الأفلاق».
 - أشعر أن جبهة التحرير ستموت.
 قلت له بلا مبالاة:

- لثمت.
 وعلّق أخي «مراد» ساخراً:
 - ألا يا جبهة التحرير نوحى، ألا يا عشق خالي العزيز
 استريحى.

لكن خالي لم تكن معنوياته على ما يرام في ذلك
اليوم، فخاطبه غاضباً:

- يا حي جيل يا حي... «ياكل في الغلة ويسب في
الملة». لولا جبهة التحرير، لما كنت تجلس أمام شاشة
التلفزيون في بيتك الدافئ، وتصوغ جملة صحيحة باللغة
العربية وتسخر من خالك بهذا الأسلوب البليغ.
وكان «مراد» شعر بالذنب، فأراد تغيير مجرى الحديث
بطريقة أكثر تهدياً:

- في كل الحالات أنا لن أنتخب، وسأحتفظ بصوتي
لنفسى، لم أعد أتق بأحد.
قاطع خالي:

- ترى لو كان جذك حياً، هل تصدقه وتثق به، وتمنحه
صوتك؟

- لو... (وقد ضغط على «لو» بشكل أوحى بسخرية
في معناها) لو كان جذي حياً... لكن لاحظ أنه منح
لهذا الوطن كل شيء، فيما لم يستطع الوطن أن يمنحه
على الأقل قبراً، إنه يشبه الأسطورة التي تتناقلها الشفاه،
يسكن الريح، يسكن الهواء يا خالي... -

- لا تتفلسف كثيراً، لقد رماه الفرنسيون من طائرة،

وتبعثرت أجزاء جثته في الخلاء، لا أحد عشر عليه ليبنى له قبر.

- أكلته الذناب، وما زالت ذناب أخرى تأكل اسمه، حفيت قدمك وأنت تقدّم الطلب بعد الطلب من أجل أن يطلقوا اسمه على أحد المستشفيات، أو الشوارع، ألم تشعر بضائقتك وأنت تطرق أبوابهم، وتصافح أيديهم القذرة وتبتسم لهم رغم المرارة التي تسكن حلقك، لا من أجل أن تطلب منهم حق يتمك وفترك وجوعك، وضياح حياتك بين غياب الأب، وصراع الأم مع مجتمعنا البشع كما تُصارع الوحوش من أجل أن تعيش، فعلت ذلك من أجل أن يحترموا اسم الرجل الذي حين تُخبر بين الوطن والجنة التي كان فيها اختار الوطن... سكت قليلاً - كنا جميعنا ساكتين، نتأمل خالي الذي اغرورقت عيناه بالدموع - ثم واصل دون انتباه:

- طز في جبهة التحرير، وطز في هذا الشعب، ثم وقف وخرج.

ثواناً ولحقه خالي، والأرجح أنه هرب ببكائه إلى الخارج. كان الرجل الذي يمقت عطف بني آدم عليه، ولا أظن أنه بكى في حضرة أحد حتى حين ماتت جدتي. كانت عاداته أن يكشف ضعفه للأزرق والأخضر وما

يحدث بينهما من بوح، يسلم حزنه إلى الطبيعة، يناجي كائنات طفولته وعمره الذي سُرق منه. يجد راحته في عالم الطيور، وذوات القوائم الأربع، حيث لا وجود لـ «بوزوخ كمرعين» على رأيه. كان بالضبط الرجل الذي لا يلدغ من الحجر مرتين، لا يصدق من كذب عليه مرة، لا يأمن لمن خانته مرة، ولا يلجأ لمن عطفه مرة. وأظنه تعلم الدرس باكراً حين كان غصاً، طرياً بلا حماية أب، ولهذا لم يعد يمدّ يده إلى أحد طلباً للحاجة، فقد انطوى على أشيائه، وانطوى على خيبته التي لم يفهمها أحد، والتي لم يتفاسمها مع أحد، كأنما خلُق كائناً استثنائياً لامتصاص فائض الوجد من الكون والذي نصنع بعضه دون وعي منا، بكلامنا اللاموزون.

ندمت فيما بعد على إجابتي تلك، وفكرت في أن مراد أيضاً كان يمكنه أن يخفف من حدة مواجهته له في كل مرة.

لقد كان غضبنا من جبهة التحرير غير منطقي، وغير سوي لأننا لم نعرف أن تفصل الأزمنة، ونقرأ التاريخ، لم نعرف أن نركب «العبة الليغو» التي بين أيدينا، لم نعيّر بين ما مضى، وما حدث من فعل أيدينا، ولذلك توجهنا إلى صناديق الاقتراع ذات صباح غير عادي تحمل عقداً

المختلفة وهي تغلي على لهيب الغضب وتحن تعرف مسبقاً
 أننا لم نذهب للانتخاب، بل للانتقام...
 اعترض طريقي أحد الأطفال وهو ينظ ويريني الرقم
 ستة.

- انتخي الله... انتخي الله.
 كان يقصد «الغيس».

في غرفة الاقتراع، كان أمامي رجال وأرقام، ورقم مُنح
 (لله) يفترض أنه يختفي وراء صورة رجل لا يختلف عن
 بقية أولئك الرجال في فيزيولوجيته، ونزواته، وشهواته،
 ورغبته في اعتلاء شجرة السلطة، تلك الشجرة التي
 أخرجت آدم من الجنة، وجعلت أبناءه يفرقون في أودية
 من الدّم.

من أختار؟

وقفت أتأمل الصور، وصوت خالي حميد يأتيني قوياً:
 - اللصوص كلهم فرّوا من «الأفلان» اليوم، هذه فرصة
 جدك أحمد ليعود إلى الحياة.

لكن اللصوص كالفئران لا نراهم حين يتسلّلون إلى بيتنا
 ويقضمون الذّ الأشياء وأجملها دون أن ننتبه.

من أختار إذاً وبيت «الأفلان» مثقوب ومفتت؟

هل سأمنح لجذّي بيتاً قضت على رونقه وصلابته

الفئران؟ ولماذا أنا أفكر، لم تحترم عجز مستعجلة خلوتي الانتخابية، أزاحت الستار قليلاً وأطلت عليّ قائلة:
- أشأ ثابرتات مُخلص (أيتها الصغيرة، هل نمت)
أجبتها: لا.

وخرجت وأنا أحمل الظرف فارغاً، وضعت في الصندوق، وقُغت، ثم حملت بطاقتي وخرجت.
عند الباب كان أحد الشبان يجمع الأوراق التي تُرمى، سألتني:

- من انتخيت؟

قلت: الله (لم أقصد غير ما فعلت).

ولم أنتبه كيف مَدَّ يديه بسرعة نحو الأوراق في يدي، واختطفها مني، ثم راح يصرخ في وجهي وهو يمسك بالورقة، الرقم ستة:

- أيتها الكاذبة؟

وهوت يده على خذي بقوة أوقعتني أرضاً، صرخت، فيما هم ليبركنني برجله لولا تدخل بعض الشباب، فأمسكوا به وهو يصرخ: الله أكبر، الجهاد في سبيل الله، حجابك باطل، حجابك باطل يا كاذبة...

حاولت أن أتماسك ولكنني لم أستطع، مددت يدي لأمزق وجهه بأظفري، فلم أطله، تدخل الحاضرون لتهدئة

الوضع، ولم أجد وسيلة لحرق دمه غير نزع الخمار من على رأسي، والإلقاء به في وجهه.

قلت له: - إذا كان هذا ما سمح لك لتتعدى على خصوصياتي فهو لك.

وكان بوذي أن أمزق الجلباب أيضاً وأرميه في وجهه ولكنني تماكنت نفسي، وعدت إلى البيت مكشوفة الرأس. وبمجرد وصولي، أخذت مقصاً، وجلست أمام المرأة، وقصصت شعري أقصر ما يمكن. وقد أثرت بتصرفي ذلك سخرية «زيتونة» و«وداد».

قالت لي زيتونة وهي تضحك:

- أظنك أصبت بالجنون.

فقلت لها والغيط يلف حيلاً حول عنقي:

- سأكون مجنونة إذا تقبلت جسد الأنثى القبي الذي يكتبني، لو كنت رجلاً لقتلت الوغد... اليوم... كنت «باصيث» (حكيم علي بالسجن) خير لي من هذه الإهانة.

قالت وداد:

- *coupe garçon* (قصة رجل) لن تغيرك إلى رجل.

قلت لها:

- إن كان الحجاب يسمح لوغد مثل هذا أن يصفعني أمام الملا ويتدخل في حياتي فقد أعطيته له، لن أرتديه

منذ اليوم، وسأترك الجامعة إذا أراد والذي ذلك، لكنني سأحترف الإجرام وأول واحد سأقتله عتي مصطفى وابنه، وهذا الوغد.

ضحكتنا عالياً، وقالت زيتونة:

- كنت أظن أن صفقة مثل هذه ستجعلك تعرفين جيداً المجتمع الذي تعيشين فيه، وتنسين غرورك جانباً، وتعيشين كما يعيش الناس.

فقلت لها: عيشي أنت مثل الناس، أنا أعيش على ذوقي وفوق الناس.

واستمَرَ النقاش بيننا حتى تحوّل إلى شجار أنهاء خالي بتدخله.

في المساء اتصل والدي واستفسر عما حدث، فالواضح أنّ وكالة أتيكه لم تأخذ الخبر من مصدر موثوق، لكن كالعادة، لم تعرف والدتي أن تحكي له ما حدث بالضبط، بدأت تتلعثم وتفضل الحكاية بشكل يكاد يكون مغايراً لما حدث، فأخذ «مراد» السّماعة من يدها لينقذ الموقف لكن والدي طلبني أنا. ارتخت قدمائي، وارتخت لساني، وركضت نبضات قلبي نحو أعلى الرأس، تحاول أن تصنع فيه ثقباً، لكنّها بدأت تهدأ حين جاءني صوت والدي بارداً، هادئاً، كما لم أتوقع، قال لي:

- إنك تنهزين يا «لويزا» ولا أريدك أن تكوني هكذا يا ابنتي.
- بابا أنا... -

- اسمعيني يا ابنتي، أولاً من تفكر في الزواج وهي تخطو أول خطوة على درب طموحها لن تخطو الثانية أبداً، وثانياً، احترسي من أبناء العمومة، قبل أن تحترسي من الأعراب، وثالثاً يا لويزا، إمشي على مهلك، تصلي أسرع، هل فهمت يا ابنتي؟.. أنا موضوع اليوم فلا يهمني... مفهوم... -

أجهشت بالكاء وأنا أقول له نعم بابا.
وبكيت أكثر حين قال لي: «لا تخافي»، ثم أنهى المكالمة بعد حديث قصير مع والدتي.
هكذا الآباء إذاً يحضرون في اللحظة التي نطق فيها أننا فقدنا كل شيء، لأنهم يعيشون على مهل فيما نحن نعيش قفزاً على الحبال.
هكذا يأتون في جنح الهدوء والمودة، وكأنهم يعتذرون عن كل ذلك الغياب.
هكذا أي... مثل أولئك الآباء الطيبين الذين أقرأ عنهم في القصص والروايات.
هكذا هو اليوم، لأنه شعر أن كرامته أكلت صفة من

يد نذل. لماذا كان لامبالياً كل هذا العمر؟ وهل يرتدي دور اللامبالاة بعد هذه المكالمة.

كنت مذهولة، ولكن قوية.

وسعيدة جداً ولهذا خفت، ثم لازمني الخوف، لأن أسباب السعادة عمرها قصير.

الخوف كان مرضاً يرافقتني حيشما حللت، ولا أنساء إلا حين أنغمس في قراءة رواية جديدة أو أشاهد فيلماً جميلاً، أو... حين أحلم، أحلامي تلك التي تهدهدني قبل النوم. في تلك الليلة، حين انشغل الجميع بمتابعة نتائج الانتخابات الأولى في الجزائر الديمقراطية، كنت أجلس إلى مجموعة روايات الكاتب يوسف عبد الجليل، ولم أكن أعلم ليلتها أنني دخلت عالمه كرجل، وأنّ قراءة كتاب لا تنتهي دائماً على هدوء، قد تنتهي على بداية مغامرة.. أو بداية حياة..

كان يوماً سخيفاً رغم ما حدث.

سخيف.. لأن شيئاً تغير في أنا، وشيئاً تغير في والدي، وشيئاً آخر أكبر تغير في الوطن.

بكي نخالي حين أعلنت نتائج الانتخابات النهائية،
«القيس» احتلّ أغلب الوطن.

جذّي لن يكوم بعد اليوم، ستظل أنفاسه معلقة بين

أرض لم تعرف أن تحتويه، وسماها سجلت بقايا أصوات
تلذذت موته تلك، قد يكون أحد تلك الأصوات صرخ:

- Aller, Vole petit oiseau

(ها طر أيها العصفور الصغير).

وسايرها آخر قائلاً:

- Saute Mohamed ta vie vient de finir ici dans l'air.

(اقفز، محمد، حياتك انتهت هنا في الهواء).

وقد تكون فهفت سخرية لاذعة كما تفعل الوحوش،
قبل أن يهوي جذي من باب الطائرة مدفوعاً من أحد
أولئك المجرمين، وفي الغالب قد يكون سمع شيئاً كهذا
قبل أن يرتمي في حضن الهواء:

- Quelle chance, c'est une mort impeccable.

(يا للحظ، إنه موت رائع).

وقف خالي باكياً:

- الطبيب أحمد ملكمي لن يموت، وإن لم تكرمه
الجزائر، سأكتب اسمه بنفسي على كل الشوارع،
والمستشفيات والمدارس، وحتى على القبور...

لم أر خالي في منظر كهذا من قبل، ثم أر وجهه بهذا
السواد وشعره بهذا البياض، كأنما شاخ فجأة.

رأيت ذلك الموقف في لحظة قصيرة، لم تتجاوز مسافة

دخولي المطبخ لإحضار كوب ماء، توقفت، ولكنني لم
أحتمل مواصلة سماع رثائه ذلك لرجل غادر الحياة منذ
ثلاثين سنة.

لم أحتمل رؤية جرحه مكشوفاً، فركضت نحو غرفتي،
وبعد دقائق دخلت زيتونة ووداد، وحتماً انسحب مراد
وأخي الصغير سليم ليحلّ الصمت في البيت، ويمتلئ
حزناً كالعادة.

بالنسبة إليّ لم تكن نتائج الانتخابات تعني لي الكثير،
ولكن ألم خالي هو كل ما كان يسيء إليّ.

طويت نفسي في فراشي كجنين في بطن أمه، وسحبت
رواية «الطعنة» ليويسف عبد الجليل أتمم قراءتها.

كانت زيتونة ووداد يتحدثان، بصوت مسموع على غير
عادتهما.

قالت زيتونة:

- نُحَلَّاتْ.

قالت ووداد:

- مَا نُحَلَّاتْ مَا وَالْوَر.

قالت زيتونة:

- هل تعرفين أن سامية ابنة السبتي مترتدي الحجاب؟

سألته ووداد:

- كيف عرفت؟

أجابتها:

- هي قالت لي ذلك، قالت: «إذا نجح الفيس سأرتدي الحجاب» آخرها إسماعيل معهم، وقال لها إنهم سيفرضون الحجاب على كل النساء، وسيمنعون الاختلاط في الحافلات وسيارات التاكسي والمستشفيات والمدارس.
قالت وداد:

- سنصبح مثل «بني مزاب» يعني؟

قالت زيتونة:

- لا... «بني مزاب» تغاليدهم نظيفة، وهم مسالمون، أما الفيس فسيفرض ذلك بالقوة...
قلت لهما:

- وماذا قال خالي؟

ردت زيتونة:

- خالي غادر الدنيا منذ هذه اللحظة، الآن أصحاب الفيس هم الذين يتحدثون.

وقالت وداد:

- لا تقولي لي إنك لن ترتدي الحجاب مرة أخرى، سيتعدون عليك.
قلت لهما:

- لا أحد سيتعدى عليّ، تكلموا بهدوء، أريد أن أقرأ... -

فقالت زيتونة وهي تضحك:

- اقرئي... مصيرك سيكون مثل مصير خالي، يته كلة كُتِب مثل الآخرة، الناس فيه كلهم موتى -
وقالت وداد:

- تذكري أن هناك مثلاً يقول: «صاروا علماء وماتوا».
فقلت ساخرة:

- ها... ها... ها... والحمير؟... لا يموتون؟
ضحكتنا، وقالت زيتونة:

- أنت لسانك طويل، والأفضل لنا أن نخفض صوتنا،
وتطالعين... هذا أفضل...

قلبت الكتاب لأرى ما يحويه الغلاف الأخير، فلم أقرأ سوى أسماء رواياته السابقة، وربما أحببت أكثر عنوان «الشهد والدموع»، سحبت باقي الروايات من تحت السرير، بحثت عن تعريف ما للكاتب، فلم أجد شيئاً.

قلت في نفسي: يبدو أنّ هذا الكاتب من النوع الذي لا يحب الحديث عن نفسه، أو أن حياته الشخصية أثرى من أن تختصر على غلاف كتاب.

عدت إلى «الطعنة»، رواية من القطع الوسط، صادرة

في تونس مطلع الاستقلال، ورقها أصفر قليلاً، ورائحته
تميل إلى رائحة التراب، شممتها برفق، وعدت إلى
قراءتها هروباً مما حدث بعد أن فككت رموز خارجها
وتهيات تماماً لقراءتها بحب.

أحب تلك المقاتيح الصغيرة التي نثر عليها في تقو
أخلفة الكتب وتنتظر من يديرها في الاتجاه الصحيح، وقد
وجدتني أشم الكتاب برائحته القديمة تلك منذ الرحلة
الأولى التي أمسكته فيها وأنا أسحب من الرف الأعلى
للمكتبة مغطى بالغبار حيث قلت لخالي:

- هل هو كاتب جيد؟

فأجاب:

- الشرق لا يلد إلا الكتاب الرائعين.

عقبت على جوابه سائلة:

- وهو من الشرق؟

أجاب:

- من قسنطينة.

فسأته:

- وهل هذا سبب كافٍ ليكون جيداً؟

فقال:

- طالعياً، وسأقول لك لماذا هو جيد.

قلت بإصرار:

- لا.. لا.. أريد أن أعرف الآن.

فقال:

- لا أدري لماذا يعيش جيلكم بعجلة.. على ماذا أنتم

مستعجلون! فقلت له مترجية:

- خالي... رجاء أحب أن أعرف لمن أقرأ، ذلك

يجعاني أتحسن لقراءة الكتاب.

- جيلنا كان مختلفاً، كان يدخل البيوت من أبوابها،

هو الذي كان يعطي تأشيرة المرور للكاتب إلى عالم

الضوء، لا يهتأ من يكون يهتأ ما يكتب...-

- اختلف الوضع اليوم يا خالي، كتتم تعيشون من أجل

قضايا محددة، نحن نواجه «التقسيم» العالمي الجديد،

الحروب المفتعلة، الأفكار والسيارات المختلفة

والتناقضة وغيرها...-

قامعني بصراحة:

- ولهذا لا تطالعون، تسمعون وتشاهدون، وتضعون

أنفسكم في فتوات ضيقة، طالعي يوسف عبد الجليل، فلا

أحب أن أفتح خزائن ذاكرتي وأشوش ترتيبها إذا كان

الأمير لا يهتأ بعد قراءة الكتاب، هيا اذهبي...-

انغمست في «الطعنة»، وجدنتني أسافر مع مجموعة من

الطلبة المتوجهين إلى تونس للدراسة إبان ثورة التحرير، عشت أحلامهم الصغيرة، وتقاسمت معهم الرغبة الجاف، ولسعات الخوف، سرت معهم الدروب الوعرة إلى أن تحوّل الحلم إلى كابوس، إلى جحيم، حين حلت كبسة الموت عليهم جميعاً على يد أحد المجاهدين للحراسة فيما الآخرون نيام، وحين أفاق أحد زملائه في آخر لحظة صرخ من هول ما رأى:

- (guoumi) قومي... حركي... كلب... قتلت
خاؤتلك هب لقتله.

استيقظ رفيقاهما، شهدا القتال...
وصف الكاتب ذلك بكثير من الدقة والمأساوية، وصف ما حدث بينهما، قال:

- تلك المبارزة لم تكن مبارزة بين اثنين من نبلاء القرن الماضي، وذاك الحديث لم يكن سوى متناوشة ما قبل الانتحار.

قال المجرم:
- بدل أن تقتلني فكري، نحن من نواجه الرصاص بصدورتنا، نحن من نترك خلفنا الأرامل والأيتام، نحن صانعو الثورة، وهم من ينعمون بهواء تونس والقاهرة، سيتعلمون، وسيعودون بعد أن نُخرج فرنسا ليجلسوا على

كراسي الحكم والمسؤولية، ونحال نحن على التفاعد
 كأنما انتهت أدوارنا، الثورات دائماً يقوم بها الفقراء
 والأميون، والانتصارات يحتكرها المثقفون، فكر...
 سألني أدوارنا، ميسرة تاريخنا...

رد الثاني، بأنفاس تقاطع الكلمات، وعرقه يسيل،
 ولعابه يتطاير:

- يا كلب، لقد قتلت الوطن، لقد قتلت الوطن، بأي
 حكومة نواجه العالم إذا كنا كلنا أميين؟
 وهجما على بعضهما بعضاً يتضاربان، فيما الاثنان
 الياقان أصابتها الصدمة.

أنهيت قراءة الرواية، وقد التهمتني غصة حزن، ليس
 لموت من ماتوا، بل لأنني فهمت خالي أكثر:
 يا لهذه «الطعنة»...

لم أفلح في هروبي ذاك تلك الليلة، لقد قادتني
 تفصيلات رواية قديمة إلى بؤر الحقيقة المغطاة.
 ذات يوم، قال لي خالي حميد:

- لن تفهمي ما يحدث في البلاد حتى تأتيك الطعنة من
 الخلف، إننا شعب لا يمكن أن نتصالح مع الحضارة ما
 دام عرق الخيانة يفتح سواقيه بين الحين والآخر على
 حقولنا.

لم أفهم يوماً قصده، فقد كنت مقتنعة أن الجزائر وطن
لا يشبه غيره. كنت طفلة ولهذا كنت أراه كبيراً جداً،
ورائعاً جداً واسمه بلد المليون ونصف المليون شهيد...
ما أجمل الحياة، والوطن، حين نكون أطفالاً.
ما أجملها حين تكون محفوفة بما لا نعلمه. مزينة
بجهننا اللذيذ لما يجري خلف فرحتنا.

وما أتسها حين تُفاجئنا بكاء يحتويه كتاب.

نمت ما تبقى من ساعات الفجر، أستعيد فصول الرواية
في أحلام متقطعة وثقيلة؛ وحين صحوت، تسللت إلى
بيت خالي أضم يوسف عبد الجليل إلى قلبي، قرعت
الباب قرعاً خفيفاً، انتظرت قليلاً، وهممت بالتزول، لكن
الباب انفتح:

- طنتك نالماً حين لم تفتح بسرعة.

- لا لم أم... ما بك؟

- لا شيء... أحييت الكتاب..

ابتسم ودعاني للدخول.

دخلت مباشرة المطبخ، وضعت الركوة على النار،
ووضع هو فنجاناً على الطاولة، ثم نظر إلي وقال:

- لم يعد عندي حليب، تشربين فنجان قهوة معي؟

قلت له:

- سأشرب -

وضع فنجاناً ثانياً، واعتدل في جلسته وقال:

- هاتي ما عندك -

- لم أطلع نصّاً كهذا من قبل لكاتب جزائري، سواء

في جرأته، أو في لغته الجميلة.

طبعاً، لأنه رجل مختلف. أغلب كتاب العربية عندنا لا

هم شرقيون ولا هم غربيون ولا هم جزائريون، إنهم

يعيشون بمحاذاة الحائط، ويكتبون بمحاذاة أيضاً...

- ليس إلى هذه الدرجة، إنك تحكم على الناس من

منطلقك الفرنكفوني، ما قصدته أنا، هو جرأة هذا الرجل -

- فأزقاز... أليس كذلك؟

- تعرفه؟

- أعرفه... كان زميلاً -

قلت له بحماسة:

- كيف هو، صفه لي -

- لماذا يهتك وصفه؟

- أشعر أنه يشبهك، أو أنه أنت، في كل كلمة قرأتها

له في «الطعنة». لم أكن أسمع صوتي، صوتك كان يقرأ

لي، وجهك كان كتيباً في كل تلك الكلمات، وقد حاولت

الفصل بينه وبين راوية وبينك، فلم أستطع... أحبك جداً
يا خالي هل تعرف؟

- مَدَّ يده ورَبَّتْ على كتفي، ثم ابتسم دافعاً بي دفعة
خفيفة نحو الكرسي المجاور له.

كان ذلك رَدُّه على آخر ما قلت، فلم يسمح له عطبنا
الجزائري أن يصوغ جملة تليق بمقام حب أبوي بين رجل
وابنة أخته، سألته:

- غير الطعنة، ماذا عندك له؟

- كل رواياته تقريباً، ما عدا اثنتين صدرتا في السنوات
الأخيرة في القاهرة، وله مجموعة شعرية بتيمة أصدرها في
بداية الطريق.

- كان شاعراً؟

- كان فاشلاً كشاعر.

- غريب.

- ليس غريباً، لقد كتبه باللغة الفرنسية.

- وماذا في ذلك؟

- لا شيء... قرأناه نحن، والأجيال التي جاءت بعدنا
لم تقرأه.

- هذا لا يعني أنه فاشل.

- يعني أنه أسماء الاختيار، ما جدوى الكتابة لغاري غير موجود، الكتاب الذي لا يُقرأ كتاب فاشل.
 - هذا غير صحيح يا خال، كتاب كثيرون رفعهم النقد إلى فوق، وكتبهم لم تخرج من رفوف المكاتب بعد.
 قال ساخراً:

- غداً ستعرفين أن لا نقد في الحقيقة، هناك أصدقاء وعلاقات وكتابات تملأ مساحات في الجرائد لسذّ الفراغ، من قرأ رشيد بوجدرة مثلاً وفهمه، غير شأته الصغيرة التي دقت له الطبول؟

- إنك تبالغ يا خال... إنه «ماركيز» الجزائر.
 - ومن قال لك إن «ماركيز» يحبه الغاري الجزائري، الجزائريون أحبوا «نجمة»، أحبوا «رصف الأزهار لا يرد»، أحبوا «الدروب الوعرة»، أحبوا «ريح الجنوب» وكل الذين ماتوا أو على وشك الموت قبل أن تصل الجزائر إلى الوحل.

- إنك تناقض نفسك... بكل صراحة.
 - قد أكون كذلك، أنا لست معصوماً عن الخطأ، لكنني متيقن أنّ الغاري الجزائري لم يجد نفسه في النص الحالي، خصوصاً المكتوب باللغة العربية، ولهذا لم يعد يقرأ.

صمتت -

صمت هو الآخر، ولا أدري في ما كان يفكر.
أنا أنا فقد أصاب عاهتي بكلامه، وزجج بي في رواق
ضيق، تحننت فيه ضخامة أزمتي طوال تلك الأشهر التي
مضت، ما جدوى الكتابة لقارىء غير موجود.
كان يجب أن أقول له، ما جدوى مواجهتي للغة لا
أفهم منها الكثير.

كنت أخفي إخفاقي عن الجميع كل تلك الفترة في
الجامعة، متشبهة بشيء لا أدريه إن كان أملاً أو تضييعاً
للوقت.

بعد ستة أشهر من الدراسة، عرفت أن كلية الطب
ليست بالمكان الصحيح لي.

فكلما حاولت الانسجام مع أقرانها، اصطدمت
بجدران اللقمة. لم أكن أفهم إلا الشيء القليل من
محاضراتها، فأغلبنا نحن الطلبة معزبون، الشيء الذي
يجعلنا في وادٍ والأساتذة في وادٍ آخر، وكثيراً ما أضربنا
عن الدراسة، رفعنا الأيدي والرايات والقمصان... وقفنا
عمرة... صرخنا أننا لا نفهم شيئاً «تأغلبوها العربية»
(يلعن أبو العربية) لكن لا أحد استجاب.

كنت - كغيري - ضحية قرار لاعفلائي أصدرته الدولة لمجاملة الشرق ومسح آثار فرنسا من الجزائر.

بعد شهر بالضبط من الدراسة، ومن ذلك الصراع مع مقاييس الدراسة وجدنتي مطفأة تماماً، أجلس في قاعة المحاضرات منمضة الحواس، أنتظر انتهاء المحاضرة لأجوز إلى صديقتي «حسنة» لتشرحها لي من جديد باللهجة المحكية، فقد كانت من بين آخر دفعات البكالوريا الذين نجوا من كارثة ذلك القرار التصفي... .

- لكل قرار ضحايا. قالت لي حسنة ذات يوم حين وجدنتي أبكي في غرفتي بصوت عالٍ، جالسة أمام دفاتري أتأمل رموز مقياس الـ: Histologie (علم الأنسجة). قلت لها:

- لماذا يجب أن أكون ضحية، لماذا يجب أن تُعْرَب بهذه الطريقة، لماذا في هذا الوقت الذي فقد فيه العقل والعلم والحياة، من من العرب يشعر بأزمته اليوم، إنهم يصفقون لقرار كهذا من وراء إيمانهم المتين بأن لا وحدة بيتا حتى وإن عُرِّبنا.

ليتها استوعبت أزمته هي الأخرى، أو ليتها أبصرت جيداً ما أرمي إليه... . لكننا قد تكون أدركت أن اللغة هي أهم عوامل النجاح، فمن بلغ كلية الطب بمجموع

جيد، حتماً له مستوى من الذكاء أهله لذلك، لكنّها لم تدرك ما يفقده الإنسان من عزيمة يوماً بعد يوم أمام عقبة الضعف تلك التي تتسبّب فيها عوامل خارجة على نطاقه، إذ لم يكن الوقت مناسباً لتعلم اللغة وفق كل تلك المقاييس التي تتطلب الكثير من التركيز والحفظ...

ولهذا رغم كل ما بذلته من جهد فشلت وكانت النتيجة المنطقية لعامي المضي ذلك «Ajournée» أي راسبة، وكان يمكنني أن أتأسف أو أبكي على نتيحتي تلك كما فعل أكثر زملائي الراسبين.

لكنني لم أفعل...

كنت قد وجدت السند قبل السقوط.

بالفعل كان هو من توجّل إلى عتمة اكتسابي وأشعل قذّاحته هناك، يوسف عبد الجليل...

أضواء مصابيحه في اللحظة التي حلّت فيها العتمة عليّ وقرع أجراسه موقظاً روحي، معلناً أنّ الموت لا يحلّ علينا بمجرد رسوبنا في امتحان.

لكنني شعرت أنني طعنت خالي في نواة أحلامه.

أذكر سعادته بتجاحي في البكالوريا وكيف أصرّ أن التحق بكلية الطب. أرادني أن أمنح الحياة لمهنة جذبي إكراماً لذكراه، لكنني خيبت إرادته، ومشيت وراء مهنته

هو، فدون قصد منه جعلني أسير وراء أحلامه، حين وضعني في مواجهة رجل مثل يوسف عبد الجليل، بدأت قارئة له، وانتهيت عاشقة له، وأظنني قبل أن أتحرّك بغضول الأنثى نحوه، تحرّكت نحو لغته. سافرت إلى قسطنطينة ذات صباح صيفي كتيب، وتقلت وثاقي إلى معهد اللغة العربية وأدائها، دون أن أبكي على فشلي في الطب، فعلت ذلك كأنما أضع صندوق مشاعري في برّاد يلائم حرارة ذلك الصيف الشرس، وتولّيت عزاء نفسي بالإرتواء في حصن لغة ماردة، كانت سبباً في إقصائي، أردت هزيمها في الحقيقة، امتطاءها، تفكيكها وتركيبها على هواي، أردت أن أخضعها لمهارة لعبي أنا، لا السقوط في لعبتها الساخرة تلك التي جعلتني أدخل الحياة في عز عفتواني بعاهة اسمها عاهة اللغة.

وقد يكون يوسف عبد الجليل، مبرراً لا علاقة له بما فعلت، لكنه كان سبباً كافياً لإقناع نفسي بقراري ذلك، الذي لم يتدّ صائباً لكل أفراد العائلة.

مراد مثلاً قال لي:

- هذا أحسن ما فعلت، فتشريح الأبيات الشعرية لن تضطري بعده لغسل يديك.

خالتي ردّ عليه قائلاً:

- بعض الشعر، نحتاج إلى أخذ حمام بعد قراءته،
قالها دفاعاً عني رغم حزنه.

لكن أمي بكت، وهذا ما أثر فيّ، قالت إنها كثيراً ما
حلّمت أن تكون «أم الدكتورة».

أبي لم يهتم للأمر، خصوصاً بعد أن لاحظ أن خلعي
للحجاب رفع أيدي رجال العائلة عني، على أساس أنه
مبؤوس من إصلاحه.

خالتي قال لي سرّاً:

- هكذا حصرت عمرك بين قطع الطباشير والسبورة.
لحظتها صُدمت بما قال، لكنني كنت متأكدة أنني لن أكون
مُدرّسة، قلت له:

- كيف تقول هذا، وأنت الأدرى بعطب اللغة الذي
أعانيه، لأنك عانيت العطب نفسه حين عُربت جريدة
النصر، فرجدت نفسك مراسلاً صغيراً في جريدة
المجاهد، الشيء الذي جعلك تنسحب لأنك لم تتعود أن
تجلس في الصفوف الخلفية، وتفتح مكتبة ومحل تصوير،
ويوم صدر قرار التعريب، وشمل الأقسام التي أنا منها،
وكنت أبكي لأنني صنّقت ضمن المعرّبين أقنعتني أنّ اللغة
العربية جزء حقيقي من مجتمعنا، قلت لي إن جبهة التحرير
وصلت إلى الشعب عن طريق اللغة العربية، ولهذا ساندتها

الشعب وهزم فرنسا. أنت من فتحت لي أبواب مكتبتك،
عباتني حين لم يكن أمامي غير حسائري بدروس التحدي
والاختيار... .

سكت... .

ولم أفهم سكوته، ألقولي الحقيقة واعترافه بها، أم
لغضبه من صراحتي... .

إذ ظل طوال أشهر الصيف يتحاشى الدخول معي في
موضوعات نقاش، فكلما تحدّثنا عن أي موضوع وصلنا
إلى الخلاف ذاته، كان يدرك في النهاية أن الصحافة
هدفي، وعن دراية حدّرتني قائلاً:

- الميدان الإعلامي وسخ، ولا يمكن أن تصمد فيه
امرأة.

لكنني غامرت منذ أن امتطيت القلم لكتابة خواطر، ثم
قصص أخفيها، طناً مني أنها ستزيد من سخرية العائلة إذا
اكتشفتها إلى أن وجدتني في معهد الأدب أفتح شيئاً فشيئاً
صناديقي السرية، علناً... . علناً، وأتياهم بما أكتب.

كانت أيامي الأولى بمعهد الأدب تطاردني فيها دموع
 أمي أينما حللت، وفي أغلب الأحيان كنت أصل إلى
 الجامعة محبطة، فأتمشى قليلاً في رواق عمارة الأدب،
 أو عمارة العلوم أو في الساحة، وأعود إلى «نحاس»
 أرتمي في صمت غرفتي.

أحببت «نحاس» كثيراً، كان يطلّ على مبنى الإذاعة
 والتلفزيون، والجبل، والشارع، والجامعة الإسلامية، كان
 في حدّ ذاته محطة تلفزيون، أما غرفتي فكانت جميلة
 مريحة وتشاركتني فيها زميلة من صفّي اسمها «نرجس». في
 البداية لم أتقرب منها كثيراً، كنت أخرج إلى المدينة هروياً
 من العصمت الذي يضعنا في مواجهة بعضنا البعض،
 فأمشي مسافات طويلة من «نحاس» إلى «ملعب بن عبد
 الملك» إلى «سان جان» إلى «لابريش»، إلى «شارع
 فرنسا»، «فسوق العصر» إلى تلك الأزقة الضيقة التي أضيح
 فيها دائماً ولا أخرج منها إلا بمساعدة أحد حيث «رحبة

الصفوف» و«الجزائريين» وتلك الأزقة الضيقة والحرائيت الصغيرة، والحيطان البنية والطرق المرصوفة بقطع حجرية مستطيلة، وأغاني «المالوف» التي لا تسكت إلا حين يحل المساء؛ أتوغل في قدمها، وأتنفس ألمها وجمالها وأوهم نفسي في كثير من الأحيان أنني أصادف أبطال يوسف عبد الجليل يتبعضون ويتحاورون ويمزجون بقربي دون أن أنتبه لهم.

أجدني في مسرح قصصه عنصراً عابراً في قصة حب أو ثورة وموت...

وأسأل نفسي لماذا كتب الحب متأخراً؟
 أيمكن للحب أن يجيئنا متأخراً؟ في الخمسين.. في الستين.. في.. السبعين..؟

ما الذي يمنعنا أن نحسب غير التزاماتنا الاجتماعية وصدقاتنا السابقة؟

وما الذي يمنعنا من كتابة الحب إذا؟
 أفكرم والرحمة في تلك الأزقة القديمة الضيقة تمتص أسناتي وأعود بعد تعب إلى «تحاس» أصبّ مشاعري على الورق.

في أحد هذه الأزقة تعرّفت إلى حنان بن درّاج، كانت

مع مجموعة من الفتيات وكنت أقف أمام بائع أعشاب
وعقاقير اشترى حناء لأمي، سألتني:

- قَدْء الساعة.. - يَعْشَقُكَ؟

أجبتها:

- اسمحيلي.. لا أحمل ساعة، مَا يَهْمُنِيش الوقت.
ضحكت وعلقت:

- العرب كلهم لا يهتمهم الوقت، ماشي غير أنت.
قلت لها:

- بَصِّحْ أنا مَا يَشْنُ عريية، أنا شاوية.
فقلت:

- Tiers monde (عالم ثالث)، شاوية ولأ عريية رَأْنَا كُلَّ
في شاشية واحدة.. (كلنا تحت قبة واحدة).

وإذا بها تمدّ لي يدها لمصافحتي وتقول: أنا قسطنطينية
أباً عن جد.. تشرفنا يا أختي..

أمسكت يدي ومصافحتي بحرارة مدهشة، فيما انفجرت
صديقاتها ضاحكات، وقالت لي إحداهن:

- مَع مَنْ طُخِنت؟... (مع من وقعت؟).

كانت رهيبة في مزاحها وسخريتها، ولهذا أحببتها منذ
ذلك اللقاء، وفيما بعد حين توقدت علاقتنا عرفت أن
إبتسامتها واجهة كذابة لحزن عميق.

فقد قرّرت أقدارنا أن نقسم الحزن والفرح معاً.
 إذ التقيتها مرة ثانية في رواق عمارة الآداب، نظرت
 إليها مبتسمة وقائلة:
 - ما زلت شاوية.

ضحكت، وجاء كلامها ريناً جميلاً مع الضحكة.
 - خيَّار الناس أختي، وأنا ما زلت بنت قسنطينة.
 تقاسنا المزاج السريع مرات، ثم صارت تجمعنا طاولة
 واحدة بالمكتبة الجامعية، ثم صرنا صديقتين.
 كنا نهرب من صفوف الدراسة إلى المكتبة لأنها أدهأ،
 فقد كانت الصفوف باردة لعطل في نظام التدفئة.
 وقد كنا نحب المكتبة لأنها ذات جدران من زجاج لا
 تخفي عنا ما يحدث في الساحة وتجعلني أحلم أكثر حين
 تمطر.

وأظن أن حنان أصبحت جزءاً مني حين عرفتني أكثر،
 والغريب أنها تختلف عن أبناء قسنطينة الذين لا يحبون أن
 يختلطوا بالطلبة القادمين من خارجها أو *des résidents*
 (المقيمين) كما يطلق علينا.

لحنان شعبية تجاوزت أبناء قسنطينة، إذ عرفتني على
 طلبة من تونس، وفلسطين، ونيجيريا، والصحراء الغربية،
 وحتى من البوسنة.

ودخلت معها كل زوارب المدينة، عرفت أوجه
قسنطينة، خباياها، أحشائها، لم أترك شيئاً لم أعرفه وأنا
معها. نمشي حتى تنكمش رجلاي من الأكم، هي لا
تتألم، تقول لي:

- بيتنا هو الذي يؤلمني من كعب رجلي حتى سقف
رأسي كانت كلها أكبر من الأكم.

ولهذا ضحكت حين قُدمت لها كتابين كانا معي لتسألني
بمطالعتيما ذات يوم، نظرت إليهما وقالت:

- «أحلام جوهرجي» ليوسف عبد الجليل، «الربيع
والخريف» لحنا مينا، «صباح الخير» لأنه لويزا، «الخير
الأخير تجيبو تونس» لقد طالعتيما من زمان.

شعرت بخيبي فجأة، همزت كفي وقلت لها:

- آسفة، لا أملك غير الكتب لمواساتك، فحتى الكلام
يخونني في كثير من الأحيان، أفضل أن يفهمني الآخر
دون أن أقول كثيراً من الأشياء.

لم تعلق، أعظها فهمت ما قصدت، ولكي أكرم صمتنا
المفاجيء ذاك، سألتها:

- أيهما أحببت أكثر؟

أجابت:

- في الأدب يمكتنا أن نحب أكثر من رجل.

قلت لها:

- لا يمكن... المرأة حتى مع الأدب تقيم علاقة سرية مع رجل واحد فقط، تفضل كاتباً واحداً، تبحث بين أبطاله عن نمط واحد فقط من الرجال هو الأقرب دائماً إلى رموز قلبها ولهذا ربما صعب عليّ أن أضع يوسف عبد الجليل في موقع مقارنة مع أي كاتب آخر.

- في هذه البلاد، حين ولأ متحيشش، رنّها واحد. يفرغني غضبها المفاجيء، ترعيني عاصفة صيفها تلك التي تهب حين لا أكون على غير توقع بها.

يجتاح الطوفان مساحة ملامحها، تفرق في حزنها من جديد قبل أن تنفث عنها غمامة الغضب بالطريقة الفجائية ذاتها، فتعيدني من حيث أقلعنا:

- هل تعرفين ماذا يعجني فيه؟

- ماذا؟

- أناقة؟

- أنت تخرجين عن إطار النص؟

تفاجئني أكثر:

- انظري إليه اليس أنيقاً وجذاباً؟ يشعل! (رائع!).

جمدت رجلاي، ضاع نظري بين الرجال، أيهم

الجذاب، أيهم الأجمل، أيهم الذي تتناسب معه مقاسات
روعة الكتابة؟ أيهم شارك في صنع قدرتي؟ أيهم...
انخفضت الضجة وأصوات الباعة، انخفضت حركة
السير، خمدت الأصوات، وتعطلت آلة الحركة.. وتوقف
كل شيء عن الحياة إلا هو...
كان يتقدم نحونا.

أخ خ... ما هاتين العيتين، ما هذه الهيئة، ما هذا
الجبين الذي تنام فيه الدنيا... شعره أسود... إلى
الوراء... يا الله... كيف يصفون الرجولة حين تكون في
هذا الكمال؟

قالت حنان:

- حَمْسَةٌ وَخُمْسٌ عَلَى مَذَاكِ التُّوسْتَاشِ.. (خمسة في
عين الحاسد على ذلك الشارب).
وانفجرت ضاحكة.

وكان شكلي مشيراً للضحك ربما، وأنا أحاول حفظ
تفصيلاته. البحر يتدل على صدره، ربطة العنق الجميلة،
والبدلة الأنيقة التي ترسم عرض الكتفين، قامته، حذاءه
الأسود البراق الذي لا يحيط فيه، لا أزراره، لا عقد،
أملس، بسيط.

قالت حنان:

- الأزرق لونه المفضل -

قلت لها :

- حذاء الرجل شخصيته، أنظري إلى حذائه.

- la classe -

يبدو فعلاً كذلك، إنه رجل رفيع الذوق، بدون عقد،

يحب كل الناس.

- c'est normal (طبيعي) رفيع الذوق، ألا تعرفين أنه

كان متزوجاً أميرة.

- أميرة أميرة؟

- princesse يا مَحَايِنِكَ وعلى رأسها تاج، يَطْحُ

étrangère (أجنبية).

- فأورثة (غريبة)؟

- لا أظن... قبل لي عرية؟

- وماذا بعد؟

لم تجبني، كان قد صار أمامنا بالضبط، استوقفته

بطريقة مهذبة.

- صباح الخير monsieur عبد الجليل.

هبت الفخامة من بين شفثيه.

- صباح النور أهلاً بن ذراج.

- أقدم لك صديقتي لويزا والتي، تصوّر، شايوة تدرس الأدب العربي.

ابتسم وعلّق:

- هل عند الشايوة بنات بهذه الجاذبية؟

تساقط الثلج لا أدري من أين ولعمري-

مدّ يده، صافحنا، ظلت لمسة يده مستقرة في يدي، دفء، رائحته، تاريخ يده التي صافحت الرؤساء والوزراء و«الشخصيات» والفقراء، ولأمت السلاح والورق والأميرات... يده...

سألها: - أين صرت؟

أجابته: - أنهيت تفريغ الشريط، سأحرّر الموضوع في المساء، وغداً صباحاً يكون عندك.

- غداً... لا... سأسافر إلى العاصمة بعد ساعتين، دعيه ليعقد غد. ودّعنا ولم يبتعد كثيراً، دخل مسجد عمر بن الخطاب.

ولم تنتظر حنان أسئلتي، قالت على الفور:

- سيصلي العصر،... هل تعرفين لو لم يكن مصلياً ومؤمناً بالله لما تركتني أمي أعمل عنده، فالوسط الإعلامي كله وسخ.

نظرت إليها معاتبة وقلت لها:

- تعملين عند يوسف عبد الجليل ولم تخبريني بذلك؟
ضحكت وقالت لي بعصية مفتعلة:
- ثوليتي خبير، (كُلّيتي أحسن) وهل أخبرتني أنت أنك
معجبة به؟

شيء من الغضب انتابني:
- صرت تعرفيني، مشكلتي أنني لا أعرف أن أتكلم،
لا أعرف أن أسأل، وبعض الأشياء، أخجل من قولها،
وبعضها أراء من غير المجدي الروح به...
كانت تلك عقدي فعلاً، الشيء الذي يجعلني أوفر
الكثير من الكلام الضروري قوله، وألجأ إلى الكتابة حين
لا أجد ما أقرأ لأنسى عقدي تلك. ولهذا أعيش في
خصام دائم مع نفسي، تماماً كما خاصمتها، في ذلك
المساء.

كان يوسف عبد الجليل أمامي، صافحني وصافحته،
عرفته بنفسه بطريقة تجعلني دائماً نكرة عنده، فيما كان
بوذي أن أقول له إنني قرأته بجنون وأحبته بجنون، أو أن
أقول له إنني ابنة أخت أحد أصدقائه القدامى، لكنني كنت
أخجل دائماً، من سلوك الطرق الفرعية التي تشوبها الشبهة
أحياناً لبلوغ ما أحب. ولهذا اكتفيت بالابتسام بدل قول
ذلك.

لم أكن أمامه غير «لويزا والي» التي لا يعرف عنها أي شيء، والتي لا تمثل أكثر من شاوية تتسلخ من ببربيتها شيئاً فشيئاً وهي تدخل عوالم الأدب العربي، دونها بعض الجاذبية كما قال.

وقفت بسرعة نحو المرأة، أتأمل وجهي، أين رأى الجاذبية؟ إنه ليق لا غير، أين لي بالجاذبية، شعري قصير كشعر الذكور، جسمي نحيل أخفي تفصيلات أنوثته بكتزة صرف سميكة، وجينز وحذاء جلدي ضخم هو أقرب إلى أحذية الذكور.

تذكرت ابن خالتي جمال الدين حين قال لي ذات مرة:
- إنك بشعة جداً يا لويزا، أخاف عليك من العنوسة؟
وقلت له بغيط يومها:

- لا تخف علي، ما يُجيبك شر؟

فقال بلوم مستحب منه، مستدركاً كأنما تذكر أنه تجاوز حدود أنوثتي التي تجعلني لا أختلف عن الأخريات.
- طبعاً، لا أخاف عليك، فإذا لم تتزوجي، تطرّعت أنا في آخر لحظة لأنقذ الموقف.

آه... جمال، هناك رجل في هذا العالم، قال لي أخيراً إنني جذابة، ودخل مسجداً ليصلي.
ذاك الذي كان حليماً أستسلم له قبل النوم، ذاك الذي

كان سطوراً من حبر، ها هو اليوم من لحم ودم يوقظ
 أتومي التي طالما رفضتها، بكلمة لم يقصدها تماماً.
 وها أنا أرتمي في حضن لفته ومدينته، جديدة متجددة،
 متقدة الروح، ثائرة ومتمردة.

ها أنا أصحو باكراً، أستقبل الصباح مغرّدة مثل الطيور
 وأخرج نحو المدينة أسمّ رائحته، أمراً بكل تلك الأشياء
 التي أوحى له بالشعر والثورة وأفاصيص الحب.
 أتذخر لمسة يده، أشتمها، فيحضرني عطره الناعم الذي
 عبر كل معرات القلب، وفتح نوافذها على الدنيا.
 لمسة يد...

أيمكن للإعجاب أن ينتهي عند لمسة يد، ليبدأ الحب
 بالرقص على هواه؟ هل نحن من نهيء أنفسنا للحب،
 فنقع فيه في الوقت الذي نحاول أن نعالج كسور الداخل
 وجروحهم، أم أنه يأتينا من الأبواب الوردية لقصور
 أحلامنا، حين تنفض أيدينا من ذلك الحلم الذي يشنا من
 انتظاره، ونقرّر أن نرضى بالنصيب.

لا...

ليس هذا ما كنت أريد.

لم أكن أرغب في التورط في حبه، الحب لا يمكن أن

يبدأ من لمسة يد، لا يمكن أن يبدأ بين امرأة حالمة،
 ورجل مشغول عن طفولتها تلك بقضاياه الكبرى...
 لا يمكنني أن أتسأل إلى حياته المملوءة لمجرد أنني
 أردته... ووجدته كما أريد...

لا يمكنني...
 لا يحق لي أصلاً... أن أدخل بين جدران قضاياها،
 وأخلخل ذاك البناء الشاق لأنني لم أصادف أي واحد من
 أشباهه الأربعين بل صادفته هو نفسه.

ثم لا يمكنني أن أعلق كل تلك الصدق على القدر.
 القدر بريء منا أحياناً، بريء من نياتنا، لكنه يجد
 المتعة في مسائرتنا، ووصل بعض الدروب بعضها أوقاتاً،
 وبعض الأشخاص بعضهم أحياناً ولو عن طريق شاشة،
 أو كتاب، أو هاتف خاطيء... ليصبح العالم صغيراً كما
 يقول الفرنسيون.

هو صغير صغر هذه الدائرة التي تجمعتنا الآن، والتي
 عمداً صرت أحاول تضييقها أكثر...

عدت إلى رواياته كلها، أبحث عن نساك، ماذا
 يرتدين، كيف يتحدثن، كيف يغازلن الرجال، كيف هن،
 كيف دلالهن... الكتاب لا يعرفون أن يكتبوا عن غير
 حبيباتهم، ونسائهم العابرات ويحضر خيالهم لحبك القصة

لا غير، لأنهم أكثر قدرة على تفكيك أمور الحياة وإعادة تركيبها بطريقة تختلف. الأدب في النهاية ليس خلقاً، إنه عملية تفكيك وإعادة تركيب لا غير. فأيهن حبيته وفق هذه اللعبة التي لا تنتهي.

ما أكثر نساء... ما أكثر الروانين.

فأين لي بخريطة قلبه التي جمعت الشرق والغرب، وأين لي بمفاتيح إنائه، وهي موزعة بين «جماليات الجزائر»، و«فتاة شبرا»، و«مارغريت»؟

تحت أي قصة من هذه القصص سأأخذ أنفاسي، تحت ظلال أي مدينة من مدنه سأتوقف عن رحلة البحث، قسطنطين، أم القاهرة، أم أضيق في بيروت وباريس؟..

أي رجل هذا الذي تعثرت بتاريخه، وجعلني أرثدي أنوثي، وأحمل دفتر انفعالاتي وأركض إليه.

قالت لي حنان حين رأتي مرتبة الهندام، أرثدي فستاناً على غير عاداتي، وأضع قليلاً من أحمر الشفاه قبيل الذهاب معها لمقابلته.

لتقل ليها «إن»..

لتقل.. ثمة ما يحركنا في الأخير نحو أنفسنا. فلم يعد باستطاعتي أن أنتحز لأنوثي أو أن أسير مغنضة العينين نحو فحّ من فخاخ شاب مثل ابن العم.

يوسف ذاك الرائع... .

ذاك الطيف، أقف أمامه، وكأني أمام مرآة تعكس صورته، كلما مددت يدي لألمسه مرة أخرى أجد الزجاج يفصلنا عن بعضنا بعضاً.

لنقل فيها «إن»... .

لقد حلمت به، لكن، كيف لي أن أخترق الزجاج؟
ذاك المكتوب الذي يعج بذاكرته. تلك السنوات التي بلغت سأم الرهبة.

ذاك العفوان... .

كان مكتبه مفتوحاً حين وصلنا دار الصحافة في العاشرة صباحاً وكان مرتباً ونظيفاً، وعلى الجدار صورة للرئيس هواري بومدين، لا أظنه وضعها للصدقة التي كانت بينهما، ولكنها العادة عند أغلب الجزائريين.

«الجزائر يحكمها بومدين من قبره».

لم يمت في قلوب الناس.

لم تمت «حزرتة» (نظرتة)، تفتيبة جبينه، قسوة ملامحه، وجه الأبوي للشعب، وأظنه انتظر مثلنا عهد الديمقراطية ليعود إلى الحياة، ويطل على صياح شعيه من بعده من خلال صورة! سألت حنان:

- أين تنتظره؟

أجاب:

- في مكتبه.

- ألا يتزعج؟

- لو كان يتزعج لوضع سكرتيرة أمام الباب، مكتبه مفتوح للجميع، هو يحب ذلك.

كيف يمكن أن يتشابه الشخص بأشيائه، فتشملها مشاعرنا لأنها له، كيف تبدو صلبة صلابته، وناعمة نعومته، ومسيئة فينا لكل شلالات الرغبة.

مررت يدي على مكتبه أتحنسه، وكأنني الأسمه هو. تحنست أوراقه وأقلامه، وهاتفه، ما أسعدها وهي تعانق أصابعه وتتففس أنفاسه، وتلثم كلماته كل يوم! وجدت أحد أدراجه مقترحاً، ألقيت النظر بفضول عليه:

سجادة صلاة ومصحف.

استدرت نحو حنان لأسألها، لكنها كانت منكبة على أوراقها تعيد قراءتها بصوت خافت. فكتمت السؤال لغير حين... في تلك اللحظة تعرّفت إلى توفيق.

وبين أشياء يوسف، بين ما كتب، وما تبقّى من آثار يديه، وقدميه وأنفاسه، وما تسجّل من فرحة وغضبه، وما حوت ذاكرة تلك الغرفة من انفعالات؛ دقّ الباب المفتوح

دقة واحدة، ألقى التحية ومازح حنان ماذا يده لمصالحتها.

- ماذا أحضر «شارلوك هولمز» اليوم؟

مازحته هي الأخرى وهي تشدّ على يده:

- أحضرت كاتبة قصة لوالدك، وعروساً لك. وأشارت

إليّ. - يا للمزحة! -

كأنّ ريحاً مَبَّتْ من أسفل قدمي ورفعت بالفستان إلى أعلى. اعتدلت في وقفتي وابتلعت ما طفح من الخجل على وجهي وأعضاء جسدي كمن يبتلع ملعقة من زيت السمك.

نظرت إليها،

ماذا عسى أن تفعل النظرة أمام جراتها.

مدّ يده، وسارعت إلى تقديمه لي بطريقتها:

- توفيق عبد الجليل. - - فيلسوف زمانه.

قلت له:

- لويزا والي.

ولم يعطني وقتاً لأفكر بشخصه، كان قد اختصر كل المسافات نحوي.

- لويزا والي اسم جميل.

قلت لنفسي: «هؤلاء القوم يجاملون بالوراثة».

لكنه أردف:

- يناسب الأدب.

ترددت قليلاً ثم قلت له:

- قد يناسب الأدب، لكنه لا يناسب عائلتي إذا دخل

عالم الأدب سأبحث عن اسم مستعار.

قال:

- سييء جداً أن نحترق من أجل أسماء ليست لنا،

لأنها في الغالب تلغينا، تتمرد على الأصل، تعيش هي

ويظل الأصل نكرة:

- هذه وجهة نظري!

كانت حنان مشغولة عنا بأوراقها، تقرأ، ترقم، تشطب

بعض الكلمات لكن رادارها يلتقط كل شيء.

قالت قبل أن أجيب:

- «اسأل مجرب ولا تسأل حكيم».

ابتسم وقال:

- عبد الجليل ليس بلقبنا الأصلي، إنه لقب مستعار،

كان لقباً ثورياً اختاره والذي لنفسه، ثم أديباً، ثم أرسى

قواعده ومدّ الجذور.

فتحت لمي، فتحت الدعشة أزرار فضولي:

- كيف يمكن أن يحدث ذلك؟

أجاب:

- مثلما حدث مع قاصدي مرياح، مع هواري بومدين، voilà بومدين c'est un bon exemple (مثال جيد)، هو متاضل، وزوجته كاتبة، استعارت اسم نضاله، وقد وافقها جداً.

- أنيسة بومدين؟

- أنيسة، حتى حين طمست ذكرى بومدين في عهد الشاذلي، ظننت تذكرنا به غلثاً، أظن بأن أحسن شيء يمكن أن يحدث لنا حين نعطي اسمنا إلى كاتبة أو كتاب.

- تجزئي إلى موضوع آخر الآن.

وكان يحاول أن يقول شيئاً آخر حين سمعنا دقة واحدة على الباب، تبعتها «السلام عليكم» بذلك الصوت الفخم والشعور نفسه انتابني حين رأيته لأول مرة، انشق صدري نصفين، نزل الدم إلى أسفل قدمي، ثم صعد دفعة واحدة إلى رأسي.

والذي حدث حينها أنني أمام النسخة الأصل لرجل كثيراً ما حلمت به. فكيف لي أن أصدق بعد اليوم أن لا أوراق ثبوتية لأحلامنا، وأن لا نقاط تقاطع بيننا وبينها؟ كيف لي أن أتماسك أمام ذلك الجسد وتلك الروح؟

أمامي كان، ولا شيء أبعدني عنه غير تلك السنوات
التي أضيفت إلى عمره في غيابي.
كنت قد حصلت على إحدى الجرائد، من مكتبة
الأرشيف بالقصبة، تقول إنه ولد في السادس عشر من
جويليه في العام ستة وثلاثين. لست أكثر من نصف عمره
الآخر إذن...

فقد أجريت مباشرة تلك العملية الحساسة بيننا:
وبيني وبينه عمر من السنين، وأربعة أشهر، وأربعة
أيام،

مرة أشطب الأيام، ومرة أشطب الأشهر، ومرة أعتبرها
سنة معاً فأشطب سنة من فاك الفرق بيننا، كأن ما بيننا
سيرسخ على وثيقة حب...

رحت أبحث عن أي علامة أخرى تربطنا ببعضنا بعضاً.
قفزت إلى كتاب الأبراج لمبصرة فرنسية، قلت لنرجس
بحماسة:

- عظيم برجه السرطان.

ضحكت نرجس وقالت لي مازحة:

- ونبي يهندي.

بحثت من جديد عن اليوم الذي وُلد فيه.

- إنه خميس.

- عظيم .

قلت :

- ليس عظيماً، أنا مولودة يوم الاثنين، هذه معاكسة من القدر؟

أدهشتي يومها بإجابتها:

- إنها مغازلة، صوميهما معاً كما كان يفعل الرسول (ص) وستشعرين بالوحدة بينكما، لقد كانا أحب يومين إلى الرسول (ص) بعد الجمعة.

قلت لنفسي:

- يا للعفريتة، فتحت عليّ باباً آخر للغوص في ذلك الحلم.

ألقيت رأسي على المخذة، وتوقفت عن عملياتي الحسائية اللامجدية تلك، وقلت في نفسي، لو تعلقت بالكاتب رشيد ميموني لوقرت على نفسي الحساب إذ ولدت في اليوم نفسه الذي وُلد فيه.

كنت أسترجع تلك الأشياء فيما حنان وتوفيق يتناقشان في أمور إحدى الصفحات مع يوسف عبد الجليل.

وفجأة وكأن كل شيء كان مرتباً لأن أدخل معه في حديث حميمي خاطيني مباشرة:

- انتهينا مع المشاهدة، فماذا في جعبة صديقتها؟

خرجت حنان وتوفيق -

فلذا بي على انفراد مع فارسي -

مددت له دفترتي والخجل يعثر كلماتي ويضخ الدم إلى

وجتي وخياشيمي... قطع عليّ النفس -

لم أقل له شيئاً، كنت قد قلت له أكثر مما يجب أن

تقول امرأة لرجل في نصوصي -

أشعل سيجارة بيد، وأمسك دفترتي بيده الأخرى، وبدأ

يقراً من أول صفحة -

لاحظت، أنه أمسك السيجارة بيده اليسرى التي يزين

أحد أصابعها خاتم، وأنه ظلّ يمسكها دون أن يسحب

منها نفساً -

وكنت أظنه سيقراً قليلاً ثم «بوزعني»، كأن يقول لي

مثلاً عودي بعد أسبوع لأعطيك رأيي، أو عودي غداً، أو

سأعطيك خبراً حين أقرأ ما كتبت... لكنه ظلّ يقرأ

ويقلب الصفحة بعد الصفحة -

أمطر جيني بغزارة، وهجم البرد على أصابعي -

جيبه هو، كان مساحة واسعة تنظّ فيها لحزاة واحدة،

رشيقة تلهو بجسدها الضاحك بدلال...

ابتسم... قلب صفحة أخرى، تمطط الزمن على

قفاي، حتى كاد رأسي يسقط من بين كتفي، وأنا أحملق
في جذبه تلك...

ابتسم أكثر، ابتسمت عيناه، ضحكت ملامحه، ازداد
شارباً سواداً حين أطلّ الثلج بزبح جميل يفصل سنه
الأمامين، من تحت شفته العليا.

كان صوتي الداخلي يقرأ عليه ﴿قَدْ أَهْوَى بِرَبِّ الْفَاقِي﴾
... ﴿﴾

قال لي:

- لا يمكن أن تكون هذه محاولات أولى في الكتابة.
اكتبي... اكتبي المزيد... قلمك حلو يا لويزا.

- قلبي حلو؟

أكد لي مرة أخرى:

- قلمك حلو فعلاً.

استجمعت كل ما كان لديّ من شجاعة وقلت له:

- تصوّر، خالي سيموت غيبطاً من التحاقني بمعهد

الأدب؟

فقال:

- أهنأك شخص في هذا العالم يمثت الأدب إلى هذه

الدرجة؟

قلت له:

- كانت أميته أن أكون طيبة مثل جدتي.

- جذك طيب؟

- حتماً سمعت به، كان من أطباء الثورة، لم يعش

كثيراً استشهد شاباً.

انتفضت غزالة جبينه، بدت أربعاً، رفع حاجبيه قليلاً

وبدا الاهتمام شاداً أشرعة عينه حين سألتني:

- ما اسم جذك؟

أجته:

- أحمد ملكمي.

اجتاحه الفرح دفعة واحدة، وقال:

- خالك عبد الحميد؟

ها قد بلغت القمة، فأين الهواء، أين الهواء؟

- هو... نعم.

ووضع السيارة على المنفضة، وفرك ذقته بحركة خفيفة

برؤوس أصابعه ثم قال:

- أما زال حزناً كما كان، أم تغير؟

أجته:

- كيف يقادره الحزن، وكل أحلامه تصبغ على مقربة

منه؟ أنا آخر من طعته، ولكن عن غير قصد فلا أحد فهم

نوع العوق الذي أعانيه... أعني اللغة...

- وماذا يفعل الآن؟

- فتح محلاً للتصوير ومكتبة.

- فضل اللغة التي يفهمها الجميع.

- أنا أكره اللغة الفرنسية.

- لا أحد يحبها الآن. لكن مشكلة الفرد الجزائري أنه

لا يفرق بين الانتماء وبين اللغة، بين الدين وبين اللغة،

مثلاً يحب العرب ظناً منه أن كل العرب مسلمون، ولا

يمكنه أن يفصل بين الإسلام واللغة العربية، فالفصل بينهما

يعني الكفر أو الانضمام إلى كفة فرنسا. وهذه فكرة نمت

عندنا أثناء الوجود الفرنسي الذي دام 130 سنة، يعني

يلزمنا قدرها من الزمن لتجاهل الجرح الفرنسي المحفور

في ذاكرتنا ونفهم الأمور على حقيقتها، قليلاً ثم أردف.

- كان لي صديق لبناني اسمه بول جدع اصطحبه معي

في أوائل الاستقلال لزيارة الجزائر. ورغم أن اسمه بول،

إلا أنه لم يخطر ببال أحد أنه مسيحي وليس مسلماً،

لسبب بسيط هو أنه عربي، وأحب الناس لدرجة أن أحد

جيرانني أصر أن يعلمه الصلاة لأن رجلاً في سنه حسب

اعتقاده، يجب أن يقوم بفروضة كاملة، وقد اصطحبه إلى

المسجد عدة مرات.

دوت ضحكته القوية، ضحكت أنا الأخرى، تعانقت

أصواتنا في فضاء المكتب، وقد كنت مشدوهة كيف فعل الرجل ذلك، سألته فأجاب:

- لم يكن بإمكانه أن يخرجهم وقد أحبهم وأحبوه إلى ذلك الحد ففضل مسيرتهم، وهذه عادة اللبنانيين عموماً، وخطر بيالي أن أفرص أكثر في خصوصياته فسألته:
- عشت كثيراً في لبنان؟

أجاب:

- لا... كنت أزوره من حين لآخر، أيام عشت في القاهرة، «ولكنني كنت أعود مديوناً دائماً من لبنان». وكان الحنين استيقظ في داخله، خفت نبرة صوته، واستلقى على كرسية أكثر، وأرخى رأسه إلى الوراء قليلاً ثم قال:

- ولادتي كانت في القاهرة.

فهمت ما يعنيه مباشرة، فقاطعته:

- حين كتبت «فتاة شُبرا».

وأصل الحديث بالنبرة نفسها:

- لأن ولادتي الحقيقية كانت في «شُبرا». نحن لا

نكتب إلا إذا كنا في حالة عشق.

لم أكن أتوقع أن يصل أول حديث بيننا إلى هذا

المتعرج الساخن لكنه وصل، بأسرع مما توقعت، استرسل في الكلام فقال:

- كانت بحجمك، وعمرك وكان شعرها قصيراً مثل شعرك، مشيت وراءها وأنا لا أعرف أنني أمشي وراء الأدب، أوصلتني إلى «شبرا» متيماً بالعشق ومن هنا افترقنا أنا وبومدين، تركته في الأزهر، ليقيم فيه، وأنا التحقت بكلية الآداب. تصوّري من «الكثانية» بقسطنطينة إلى الأزهر بالقاهرة لا شيء استطاع أن يفرقنا إلا بطله أدب.

كنت أحلم على مسافة قليلة منه، أصغني إلى طبول قلبي التي أعلنت فجأة أن تزف مزيداً من الارتباك لخوفي السابق.

وأظنني تصرّفت أمامه كأبي فتاة تافهة، فقد مددت له دفتري وأنا أرتجف، وبعد أن قرأ منه بضع صفحات وقال لي قلمك حلو، لم أعرف كيف أرد، لم أعرف أن أصوغ جملة واحدة بالإمكان أن تفهم، وفي الأخير شكرته وخرجت وأنا أترك ما تبقى من ملامحه على ابتسامة فيها الكثير من الاستفهام.

كنت أجهل تماماً لماذا تصرّفت بتلك السلبية، وما زال ألمي إلى اليوم هو نفسه، منذ ذلك اللقاء الأول بيننا

والذي لم أعرف أن أبين له فيه أنني قارنته الأولى على الإطلاق وأني أدركي مما يمكن أن يتصور.

كنت أجهل تماماً ما إذا كان حيي الكبير له هو الذي جعل أجهزة جسدي تفقد السيطرة على وظائفها في اللحظة التي تهبأت لها طويلاً؛ لطالما وقفت أمام المرأة أخاطب نفسي على أنني أخاطبه، لطالما كررت ذلك الدور مع نفسي، كلما كنت وحيدة في الغرفة، وقد ظننتي ألفتة.

فما الذي حدث إذن؟

ما الذي أصاب لويزا والي الفوية، التي تستجد بها صبايا الحي في المواقف الصعبة؟ ما الذي أصاب «عَيْشَة رجل» كما تحب أغلبهن تلقيني؟

لكأنتي في ذلك الموقف، كنت أقلد فاتن حمامة في أكثر أدوارها نعومة وعشقاً وضعفاً.

كنت فعلاً حمامة، بجناحين صغيرين وجسم يرتعش. كم يلزمني من الوقت اليوم، لأنسى حسرتي على تلك الفرصة التي أضعتها بغياء؟

كم يلزمني من الصحة أيضاً، من التفكير، ومن التحضير لمرة مقبلة قد لا تتاح لي فيها الفرصة للحديث معه؟

سألت حنان متى تعود؟

فأجاب عنها توفيق:

- إنها مثل مسمار جحا في دار الصحافة، أسألها متى لا تأتي.

وبدا المزاح بينهما إلى درجة حسدتهما فيها على ذلك العرع، أما أنا انقلب انزعاجي من نفسي على الغستان الذي ارتديت،

إذ لم تنفعني أنوثتي في النهاية.

كان تنكري الذكور يغيديني في هكذا مواقف بنسبة أكثر.



شُغلت بالامتحانات بعد ذلك اللقاء الفاشل، ثم جاءت عطلة نصف السنة فلم أرافق حنان مرة أخرى إلى دار الصحافة، لكنني لاحظت أن مصادفاتي بتوفيق كثرت.

تحت المطر، كان يمسك مظلته وينتظرنني أمام بوابة جامعة الأمير عبد القادر المقابلة لبوابة «نحاس نبيل».

وقد صدقته عدة مرات، أنه ينتظر باص «بوصوف» أو باص «فيلالي» المتجهين إلى ملعب «بن عبد الملك» وهو أقرب موقف حافلات إلى يته في «سان جان».

نرجس التي تلقته بـ «رجل المظلة» لغت انتباهي إلى

شيء آخر، حين صار يتزامن وجوده بمكتبة جامعة عين
البياض حيث أدرس مع وجودنا فيها...
وقد فكرت أن أستفسر من حنان عن الموضوع، لكنني
فضلت أن أفعل ذلك بعد العطلة.



أريس بلدة بايدة خصوصاً في الشتاء، لا توترط أناسها
كثيراً في تفصيلاتها اليومية، لكنها تنزل ثقيلة على الصدر،
ثقيلة في الغالب، لذلك أفضل أن أظل في البيت طوال
أيام العطلة كما كل الصبايا. أحتفي عمّا يُقال، أتوارى
عن الشائعات التي تشك الدبايس في رؤوس الصبايا
والشبان، وعن تلك الأحاديث اليومية التي تتخذ الماعز،
وطعام الماعز، والحقول، ومواعيد السقي والطقس
ومشكلات الحياة موضوعات للمناقشة كأنما لم تكن ذات
يوم قلب الأوراس العظيم، وقلب ثورة عظيمة، وأنجيت
رجالاً قساة صاروا أبطالاً نسيهم التاريخ. أحب أن أمرّب
من هذه الحقيقة أيضاً التي تبين كم نحن لا نبالي
بالتاريخ. أحتمي بمكتبة خالي حميد، أو بالشاشة الصغيرة
أبحث عن ملامح بطل لي يخفف من شعوري المستمر
بالخوف والوحدة.

أذكر جيداً أن المطر بدأ خفيفاً بالسقوط ثم اشتدّ، وأن

البيت كان دافئاً، حولني إلى قطعة خبز تفرح منه رائحة العشق.

في ذلك المساء...

جلست مع أمي نشاهد فيلم «بائعة الجرائد» من بطولة يوسف شعبان وماجدة، الفيلم الذي شاهدته للمرة العشرين ربما أنا وأمي، وللمرة العشرين تبكي والدتي عند اللفظة نفسها مرة حين يفصل البطلان ومرة حين يلتقيان في آخر الفيلم.

للمرة العشرين لم تعد تعينني أحداث الفيلم في شيء، بقدر ما يعينني التمتع بأداء يوسف شعبان...

أداءه... يوسف...

أذكر...

دخل مراد لامثاً وقال:

- لقد استقال الشاذلي.

لم أصدق، سخرت منه، وقلت له:

- استقالة في الشتاء، «ترتبا»...

وعيناي ما زالتا على التلفزيون.

أعاد ما قال مرة أخرى:

- أقسم بالله، لقد استقال، وقد أذاعوا ذلك بواسطة

الراديو والتلفزيون، ألم تسمعوا ذلك؟

قالت «زيتونة»:

- ليفرح عباس مدني، مسمار جحا تنحى.
ونعطق خالي من الجانب الآخر للصالون حيث كان
يجلس مع سليم يشرح له بعض الدروس.
- نساء الجزائر يعرفن كل شيء عن مصر والمواطن
المصري، ولا يعرفن شيئاً على الإطلاق عما يحدث في
الوطن.

كان يقصد تعلقنا الزائد بالنتاج المصري، لكنني علقته
على كلامه بطريقة أخرى مقصودة أيضاً:

- والرجل الجزائري لا يرحم، ولا يترك رحمة ربي
تنزل، ليستغل الشاذلي ما المشكلة، يوم نُصب رئيساً لا
أحد استشارنا، ويوم استقال أيضاً... «فراش» (انتهى
الأمر).

فقال مراد:

- هنا عندك الحق... لهم دينهم، ولنا ديننا، لكن
حيكنا لكل ما هو مصري لا أسانده، فيبنتا ثار دائم في
كرة القدم...

قلت له وقد بدأ توتري:

- دعني أنهي مشاهدة الفيلم، واثار كما تريد.
صرخ في وجهي:

- الأ تملين من مشاهدة هذا السيد كل يوم... .
- وصرخت في وجهه أنا الأخرى... .
- لا أمل، وبعد ساعة سأشاهده في مسلسل «العمال والبنون» غصباً عنك، من حقّي أن أشاهد ما أريد... .
- لا ليس من حقك.
- من حقّي، وإذا لم يعجبك حاول شراء تلفزيون وضعه في غرفتك... .
- دائماً، هناك سبب ما ليأخذ النقاش بيننا شكل المشاجرة بشأن التلفزيون منذ دخل «البرابول» بيوتنا.
- خالتي يحبّ أن يبقى عندنا أغلب الوقت بعد العمل، كأنما يهرب من مواجهة حزنه على انفراد في شقته ولكنه يبحث عن مزيد من الأحزان عبر الفضائيات من محطة أخبار إلى أخرى دون أن يعي ذلك.
- أخوأي مراد وسليم يرتزان على ما تقدّمه القنوات الفرنسية ككل الذكور في كل البيوت، ونحن النساء لنا مصر.
- والصحيح أن التناج المصري فسحة لعراطفنا أمام قلة التناج الجزائري الذي نشأه ولكنه لا يجيء... .
- مصر تعرّض ذلك النقص فينا أيضاً،

فبين عاشقين جزائريين لا نسمع كلمة حب... لأنها
محيب.

كنت أنتصت ذات يوم على ابن خالتي جمال الدين
وهو يغازل ابنة الجيران التي تزورنا من أجله، ويزورنا من
أجلها قال لها:

- هل سمعت راغب علامة البارحة وهو يفني «راجع
لعيونك بالليل»؟

تنهدت وقالت له:

- سمعته.

قال لها:

- إذا فقد سمعت كل ما كنت أريد أن أقوله لك.
سأنته بدلال:

- أصحيح تحبني إلى هذه الدرجة؟

انتفض وخفض صوته قائلاً لها:

- شششت... هل تريدني الفضيحة؟

في الجزائر... نحتاج دائماً إلى ناطق رسمي يترجم
عواطفنا.

نحن أميون حين نتعلق المسألة بلغة الحب.

قلت ذلك لجمال الدين ذات مرة.

ضحك وقال:

- هذا يؤكد لي أنّ بينك وبين العواطف أسواراً متينة لا تخترق.

استغربت.

- لم تقول ذلك؟

فأجاب:

- تضعين صورة يوسف شعبان عند رأسك، تحضرين الفلامه بشكل مرضي، تحبين محمود المليجي، وتوفيق الدقن، وربما هتلر، وجنكيزخان وكل أشرار العالم، وتسمعين فيروز التي لا تهتز ولا تبسم إلا بالفقارة فيما من المفروض أن تفعل العكس وهي تغني أكبر مدينة للعشق في العالم وتقرئين يوسف عبد الجليل الذي لا ينسى أن يخصص حيزاً كبيراً للشعر في كتاباته؛ كل واحد من هؤلاء ناطق رسمي لعواطفك أظن... ذكّرني ذلك بحديث آخر بيني وبين توفيق، حين اعتذرت عن حضور حفلة بالجامعة كان بوده أن أحضرها معه.

قلت له:

- سأذهب إلى حنان، منحضر فيلماً معاً.

يومها سأنتي:

- أي فيلم هذا الذي يحولك عني؟

يومها أدركت أن تخمينات نرجس حول «رجل المظلة»
كانت صحيحة ومع هذا أجهت باختصار يشير الاستفزاز:
- الطريد.

فاجاني بما يشير أكثر:

- تعذرين للمرة الثانية على دعوة أوجهها لك بحجة
حضور الفيلم نفسه، لماذا تتهزين مني؟
أجهت غير مكترثة لغيظه:
- هل فعلت ذلك فعلاً؟
قال:

- فعلت ذلك.

قلت له:

- لكنني أحب هذا الفيلم.

فقال لي:

- كم أنت مرافقة.

وفي اليوم التالي تكذبتني نرجس قبل أن تدخل الحى
وقالت لي:

- رجل المظلة منا.

كان الرذاذ خفيفاً جداً، لا يستدعي فتح مظلة، لكنني
حين قطعت الطريق نحوه، فتحها، رغبة منه في اختصار
بعض المسافة بيننا. قال لي ما فاجاني في ذلك المساء:

- لم يعجبني الفيلم -

كذت أقول له عن أي فيلم يتحدث، لكن بديهتي
تحركت بسرعة، فتذكرت:

- آ آ آه... الطريد؟

سألني:

- أعرف أن الأذواق لا تناقش، لكن بشرتك ما الذي
يعجبك في أدوار الشر؟

قلت له:

- حنان ما تَبْأَسُّ في فَمِهَا قَوْلُهُ.

قال:

- الحق عليّ أنا فأنا الغضولي وليست هي، أردت أن
أرى من ينالني فيك -

قلت له وأنا أصطع ابتسامة:

- وعرفته أخيراً.

فقال:

- سررت بمعرفته، لكن الفيلم قديم. ودور فتاك
الأسمر لا يناسب ذوي المشاعر الرقيقة...

قلت له:

- أفهم من كلامك أنك من ذوي المشاعر الرقيقة؟...

ابتسم، وقال شيئاً بعينيه قبل أن يقول لي:

- لماذا تحبين أدوار الشر؟

فقلت له:

- لأن كل الناس في الأخير يتفنون أداء أدوار الطيبة، أنا، أنت، وكل الناس الذين أمامك، بما فيهم اللصوص، والمجرمون، والقتلة، فكلنا ممثلون في النهاية، لكن الفنان الحقيقي بإمكانه أن يجسد أدوار الشر بإتقان، لأنه فوق قدرته في تقمص الدور يمتلك جرأة أكثر من غيره لتحمل مسؤولية الفن ومواجهتنا ببشاعة الشر الذي يختبئ فينا.

كان ينظر إليّ بطريقة لم أعهدها، شعرت في اللحظة ذاتها أنه توغل في عيني، تسأل إلى داخلي، فتح غرفتي السرية، ويعثر أشياءها كما يريد.
ارتبكت ونظرت إلى ساعتني، وكأنني أستعجل إنهاء ذلك اللقاء القصير.

فقال لي:

- اقتنعت بما قلت فلماذا تستعجلين؟

ابتسمت وقلت له:

- للسبب نفسه.

ضحك هذه المرة وأشار بسيابته إلى أنه عرف السبب

وقال:

- فتاك الأسمر؟

ضحكت وأجبه بحركة من عيني، ثم اترقتا.
 يومها كان مسلسل «هالة والدرراويش» قد بدأ، وكان
 دوره مختلفاً فيه، كان عاشقاً في خريف العمر، وكان
 أجمل شيء فيه على الإطلاق قدرة عينه على قول الحب،
 وقول الألم، والفرح، تماماً كما كانتا تقولان الشر
 والخبث والجبروت.



كنت قد ابتعدت بأفكاري عما يحدث في البيت، فقد
 أخذ النقاش حدته حين بُثَّ موجز قصير يعلن فيه أن
 الرئيس سيوجه خطابه للأمة يشرح فيه أسباب استقالته.
 وكالعادة.. كان مراد أكثرهم استفزازاً لخالي بأفكاره،
 وآرائه، قال خالي:

- كنت أعرف منذ البداية أن هذا الرجل الطيب ليس له
 علاقة بالرتاسة ولعبة الكبار.
 ردُّ مراد بحدة:

- بالنسبة إليك بن بلّة طيب، يومدين طيب، والشاقلتي
 طيب وكل رؤساء الجزائر القادمين طيبين كأنك لم تكن
 صحافياً سابقاً وتعرف ما يجري في كواليس الدولة.
 أجابه خالي:

- لو لم يكن طيباً لكانت له حاشيته التي تثبت له
الحكم مائة عام بانتخابات أو بغير انتخابات.
قال مراد:

- عن أي انتخابات تتحدّث، هل تقصد الكرنفال
الأخير الذي أسأروا تنظيمه؟
قال خالي بنيرة غضب:

- إيه... كرنفال... لا أحد سيقضي على الجزائر غير
سخرتكم أنتم الشبية من كل شي، صدق بومدين حين
قال: إن الشعب الجزائري بحاجة إلى من يفرض عليه
النظام... la discipline لا أسي محمد.
ردّ عليه مراد:

- يعني أنك مع النظام العسكري؟ كلكم الجيل السابق
تريدون دولة بوليسية.
ردّ خالي:

- الكل يحب النظام، إلا العرب يحبون حياة الصحراء
والبراري، كل أشكال النظام يستونها قمعاً ودكتاتورية...
وما كان النقاش ليتوقف، ولهذا انسحبت إلى أوراقي
وكتبي، إذ لم تكن السياسة تعينني، أما «زيتونة» و«وداد»
فقد كانتا تعشقان تعليقات خالي وانفعال مراد، وكانت

أصواتهم تصلني بين صراخ وضحك ولحظات هدوء متقطعة.

على مكتبي الصغير استسلمت لرائحة الورق والحبر وموسيقى «كلايدرمان»، كان عالمي مختلفاً عن الكل.
كان لي «مزاج مرادفة» كما كان يقول لي توفيق دائماً بسبب تلك الأحلام التي لا تكف عن مجالستي وفصلي عما يحدث في الدنيا...
توفيق... .

في تلك اللحظة تذكّرتني، ركضت إلى حفيتي وأخرجت كتاب «شرق المتوسط» لعبد الرحمن منيف، رحت أتصفّحه بسرعة، كان توفيق قد كتب لي رقم هاتف البيت على إحدى الصفحات حين وجدني بالمكتبة غارقة في مطالعته.
انحنى دون أن يقاطعي وكتب الرقم بالقلم الرصاص، نظرت إليه مبتسمة، فقال لي:

- استمتعي بالقراءة الآن، واتصلي بي فيما بعد، أريد أن أسمعك تتحدثين.

قلت له يوماً: إنه كتاب يثير البكاء.

فقال لي: وأصلي البكاء إذاً، وذهب.

لم أتذكّره يوماً، وبعد يوم كانت العطلة ولهذا نسيت.
لعلّه غاضب مني الآن بسبب هذه اللامبالاة، ركضت

إلى الهاتف، كان النقاش متواصلاً في الصالون بين خالي وأخوتي، أنا أمي فكانت في المطبخ مشغولة بتحضير شيء ما وتغني مواويلها البربرية المعهودة... حملت التلفون وعدت به إلى غرفتي.

لكن الذي حدث أن صورة يوسف عبد الجليل هي التي أطلت عليّ حين حملت الساعة ومممت بطلب الرقم. ماذا لو ردّ هو على الهاتف؟

حتماً ستحل بي الكارثة نفسها، سيفزو البرد أصابعي، وتجنّب طبول قلبي، وسيصاب لساني بالشلل، وأخلق الخط.

لا...

لن يحدث ذلك، لن أخلق الخط...

بدأت أحلم من جديد... بيني وبينه أرقام،

بينني وبينه هذا الاختراع الجميل الذي لا يصلح إلا للطوارئ، بما فيها طوارئ القلب.

الحب عبر الهاتف له طعم الزلزال.

الـ «ألو» وحدها تخلخل الكيان في ثواني، تحدث صدمة الكهرباء تلك التي تبعثر الدم والمشاعر في كل الجهات، ثم ثواني أخرى بعدها ليحلّ الفرح الذي يستمر

طويلاً لأن الكارثة لم تحدث. بدأت أدير الأرقام:

... 3 ... 6 ... 0 ... 0 ... 0

لم أدر بقية الأرقام وأغلقت الخط.

كان قلبي قد ركض إلى تجاويف الحلق، وبدأ يتسلى كطفل شقي بقلب أثاثي الداخلي.

أخذت نفساً عميقاً، وحملت السماعة من جديد، لكنني ترددت بعض الشيء ثم...

ثم طلبت حنان، رذت والدتها بصوتها العطوف الحنون، فشعرت بكثير من الارتياح، حتى أن قلبي عاد إلى مكانه فوراً بمجرد أن سمعت صوت حنان.

قلت لها مازحة:

- أراك سعيدة باستقالة الشافلي، فمتى يتم تنصيبك رئيسة علينا؟

قالت:

- أنا سعيدة بالحصار، فهنا في قسنطينة بدأت حركة غير عادية لرجال الأمن منذ ساعات، وبينني وبينك كل رجل أجمل من الآخر، كلهم مثل «أرنولد شوارتزنيفر» و«سلفستر ستالون» ستحل مشكلة العنوسة ومشكلات عواطفنا تماماً إذا استمر الحصار ستة...

هذه هي حنان بن دراج، حتى المصائب الكبرى تجد

فيها ثغرات فرح . فقد تدكرت قبل سنة حين أعلنت الجبهة الإسلامية للإنقاذ الإضراب وأغلقت الجامعة والطرق بالقبوة من طرف أنصارها، أنتي كنت في منتهى الغيظ خوفاً من أن تعلن سنة جامعية بيضاء، بينما حنان كانت في منتهى السعادة لأن المضربين يوزعون «الهمبرغر» على الناس في الطريق، وكانت تلك أول مرة ندوق فيها «الهمبرغر» وقد أصرت أن أنزل معها إلى مدرسة الفنون الجميلة التي اتخذتها مناصرات الغيس مطبخاً لتحضير الأكل للمضربين، يومها قالت لي: ليضربوا، «نُرْدُو صَحْتَنَا ما دام المأكلَة باطل».

رددشنا قليلاً ثم سألتها:

- أشعر بتأنيب ضمير، في رأيك لماذا؟

أجابت بسخرتها اللاذعة:

- لأنك أخلف من عرقوب.

- أنا أخلفت؟ أنا لم أعد بشيء، قلت لها.

لكنها تمادت في سخرتها:

- أنا لا أفهم ما الذي أعجبه فيك؟

هكذا شجعتني على الاتصال به، لكنها أثارت لدي أكثر من سؤال كيف يتعلق شاب ناضج مثله، بـ «مراهقة» مثلي تعيش في خصام شبه دائم مع أنوثتها، تحلم أغلب

الوقت بأشياء يستحيل أن تحدث، بل وأكثر من ذلك،
فهى تدبر أرقام هاتفه لا لتسمع صوته، بل لتسمع صوت
رجل آخر، ليس سوى والده.
لنحزب...

أدرت الأرقام كلها، وقد أعطيت كامل الحرية لقلبي
ليحدث الغوضى التي يريد، حين سمعت الـ «ألو» التي
أريدها قلت له:

- مساء الخير.

أجاب ورائحة تبغ تكاد تصلني:

- مساء النور.

قلت له:

- أسفة على الإزعاج «مسيرو» عبد الجليل، هل
بالإمكان أن أتكلم مع توفيق؟

سألني:

- من معي؟

تجسّد الدم في عروقي، «من معي» هذه حميمية أكثر
من اللازم، وتخضني أنا، وحين أجبت:

- لويزا.

تخيلت أن اسمي هذه المرة وقع في أذنه نقياً من كل
الأصوات كما تقع قطعة النور في حفالة.

«لويزا» هذه المرة تخضه هو فقط.

تخياته يمسك السماعه بيده اليمنى، ويفرك ذقنه بتلك الحركة الجميلة بسبائه وإبهامه حين قال لي:

- تتركين لي دفترأ لأقرأ، لأعطيك رأيي ثم تغيين كل هذه الفترة يا لويزا، دون أن تسألني، ألا يهمنك أمر ما تكتين؟

كان بوذي أن أشرب جرعة ماء قبل أن أجيء:

- أنا أسفة انهمكت بالامتحانات.

ابتسم صوته:

- لا علينا... كنت سأنشر لك إحدى القصص، لكن توفيق نبهني إلى أنك لا تؤذين التوقيع باسمك لأسباب عائلية ولهذا تراجعمت، وانتظرت اتصالك، لنتحدث بالأمر، وبكل صدق سأقول لك إن ما قرأته هو من أجمل ما كتبه امرأة من بنات جيلك، ومبدئياً أرى فيك مستقبلاً بامراً في الكتابة.

هذه المرة كان بوذي أن أصرخ فرحاً، لكتني كبحث نفسي، فسأته:

- لم يخبرني توفيق بذلك؟ أحقاً ما تقول؟
أجاب:

- وحده الأدب لا يحتمل المجاملة.

جمعت كل ما لديّ من شجاعة وقلت له:

- هل يمكنك أن أسألك سؤالاً آخر؟

قال:

- أسألي،

قلت:

- هل لك صديق لبناني اسمه بول جدد؟

أجاب بذلك الهدوء الجميل:

- ذكّرتني يا لويزا، كان لي صديق لبناني اسمه بول

شاوول اشتغلنا فترة معاً في باريس، هو عاد إلى بيروت

وأنا عدت إلى الجزائر.

سكت قليلاً ثم أردف:

- من أين اخترعت اسم بول جدد؟

أجبه بكل صراحة:

- تخيلته.

وهنا دوّرت ضحكته التي أحب والتي غصص بها حضائتي

فقط. سألتني بعدها:

- وكيف تخيلت صديقي بول؟

ضغطت على شفتي قليلاً، وأخذت نفساً عميقاً ثم

أجبه:

- أتخيله الرجل الذي يستوعب كل الطوائف، ويكره التعصب الديني و... و... في كل مكان له أصدقاء...
- وماذا أيضاً؟
- أتخيله يكره الحرب، يكره العنف، وأراه شاعراً أو رجل مسرح.
- ضحك أكثر وقال:
- يا لخيالك... كأنك تعرفينه...
- هذه المرة... كل ما جرى بيننا من حديث كله حصل، قبل أن يكلمني توفيق الذي بدأ الحديث معاتباً، وبدأته معاتبة:
- كيف نسيتي كل هذه الفترة؟
- كيف لم تخبرني أن والدك قرأ نصوصي وأراد نشر أحدها.
- لا تنسي أنني جزائري، سياستي الوحيدة أن أعامل بالمثل.
- لكنتك على علمي ابن شاعرة فرنسية أيضاً.
- الشعر لم يعد له مكان في فرنسا، الشعر خبز الحالمين أمثالنا.
- طيب، غير الشعر فيما تريد أن تحدثني.
- كنت متعباً.

- بالتأكيد لستُ السبب.

- بالتأكيد أنتِ السبب.

- توفيق... -

- لويزا . . ma chérie ، دعيني ولو مرة، ولو مرة، أن

أقول لك ما لديّ.

- هل تعرف أنك تدهشني؟

- أدهشك لأنني أحبك بالطريقة الأكثر وضوحاً في هذا

العالم؟

- هل يسمع والدك الآن ما تقول؟

- لماذا تحمين والدي في كل حديث بيننا؟

- (الابن لأبيه) tel père tel fils .

- أنت مخطئة جداً إذا اعتقدت هذا الاعتقاد .

كنت أعرف أنني مخطئة .

مخطئة في إقحام مسيرة والده في كل حديث بيننا ،

ومخطئة لأنني أبحث دائماً عن نقاط التشابه بينه وبين

والده، كأنما لأوهم نفسي أنه لهذا السبب يحق لي أن

أعب اللعبة معه .

الحب لا يأتينا في حلته المكتملة .

أظنه، كائن مستعجل لا تهتمه أناقته حين يحضر

مواعده .



انتهت أيام العطلة بسرعة.

لكن الشتاء لم يتو.

كانت قسنطينة ماطرة في ذلك الصباح أيضاً، بعض الدبابات ورجال الجيش لم يغيثوا من حركة قسنطينة، وحتى «رجل المظلة» وجدته في انتظاري، كأنما كان يعرف موعد وصولي.

لا أدري لماذا كنت سعيدة جداً برويتي، قطعت الطريق نحوه راكضة، واحتيت بمظلة من المطر وأشياء أخرى.

قلت له وأنا أنفض شعري من الماء:

- انتظرت كثيراً؟

- انتظرت سنة.

- قل الصح.

- كنا في الواحد والتسعين صرنا في الاثنين والتسعين،

كنا في عهد الشاذلي، صرنا في عهد بوضياف، هل

تدركين طول ما انتظرت؟

وكأنني أردت الابتعاد قدر الإمكان عن أي حديث عن

العراطف فقلت له:

- فعلاً... صرنا في عهد بوضياف؟

ابتسم وقال بهدوئه المعتاد:

- هل تعرفين أنه من مدينة السينمائي محمد لخضر
حاميتا أول مخرج عربي خرج من «كان» بجائزة؟
قلت:

- كلاهما من المسيلة؟

قال:

- نعم.

قلت له:

- لم أكن أعرف هذه المعلومة.

قال:

- وماذا تعرفين إذن؟

أجبت:

ما يعرفه الجميع، أنه صاحب كتاب «إلى أين تسير
الجزائر؟» وأنه من تولى تنظيم «المنظمة الخاصة» OS في
مقاطعة قسنطينة؛ فهو أحد التسعة الأوائل الذين أقاموا
المنظمة ولهذا يعرف كل رجالات نوفمبر... وحتماً كان
يعرف جدي أحمد. تماماً مثلما يعرف بن بولعيد وبن
مهدي.

قأطنني:

- لكنك لا تعرفين أنه يعرف يوسف عبد الجليل؟

نقر «الثقرة العجيبة» على قلبي:

- صحيح؟ قلت له وأنا أفتح فمي من الدهشة.

أجاب:

- صحيح، كان ذلك عام اثنين وخمسين حين أنشأ

بوضياف مع بعض رفاقه من حزب الشعب الجزائري مجلة

le patriote (الوطني) كان فيها أصغر صحافي على الإطلاق

هو يوسف عبد الجليل، كان عمره آنذاك اثنتي عشرة سنة.

قلت له والدهشة تضرم نار فضولي:

- لا... لا أصدق.

قال وهو يزيح بعينه المسافة التي بيننا:

- بلا... كان يكتب أشعاراً نشرت تشجيعاً له لصغر

سنه، كما كان ينقل الرسائل بين المناهضين.

- توفيق... لا تبالغ، إنك تقول ذلك لأنك تعرف

مدى إعجابي به؟

هز رأسه مستغرباً وقال:

- لماذا نصدق أن بيتهوفن كتب أول سيمفونية في

السادسة من عمره، ولا نصدق نحن أمة الشعر أن أطفالنا

لهم القدرة على كتابة الشعر في الثانية عشرة؟

قاطعته:

- لم أقل ذلك بالضبط ولكن يبدو الأمر عجيبياً؟

ولكنه قال لي بجدية:

- راجعي التاريخ يا صغيرتي... إن أجيال ما بعد الاستقلال لا تقرأ التاريخ، وبالتالي لا تعرف الوطن، وحتى طلاب الجامعات لا يقرأون شيئاً خارج مقرراتهم. لم أجد ما أقوله، لكنه كان يعجبني جداً حين يتحدث. وقد فاجأني، لأول مرة مدّ يده، وأمسك يدي، وهمس لي:

- توقفي عن الهروب، لقد انتظرتك أسابيع لأسمع منك حديثاً غير هذا.

ولكنه لأول مرة أيضاً، يضعني في مواجهة الجدران. وكان الهروب مستحيلاً منه في تلك اللحظة، يده، طرية، ودافئة... وعاشقة... والمطر لم يكف عن قول الأشياء الجميلة التي كانت في صالحه... يده...

تماماً كوالده، حملها فانصأ من الكلام،

قالت، قالت... قالت...

اختصرت عمري في تلك اللحظة مرتين، اختصرته، فصرت كئيلة، واختصرته فصرت صبية... ثم ضمت بين العمر الذي أريد.

وتوارد على ذهني، السؤال نفسه:

هل يمكن للحب أن يبدأ من لمسة يد؟ وهل يمكن
للقلب أن يصاب بالجنون من لمسة حب؟
يومها فقط وعدهته ببقاء التزمت،

وكان الخميس، اليوم الذي لا محاضرات عندي فيه،
فنزلت باكراً كما اتفقنا، أنتظره عند موقف الياصات قرب
مبنى الإذاعة والتلفزيون، كانت بقربي سيدتان،

إحدهما ترتدي الملاءة القسنطينية السوداء، والأخرى
ترتدي ما يشبه الحجاب، وكلاهما سميتان، وتبدوان في
خريف العمر. قالت المتحجبة للثانية:

- هل سمعت ما حدث البارحة في منطقة «الكيلومتر
الخامس»؟... قالت الثانية:

- في «الزيادة» أو «الكيلومتر الخامس»؟ قالوا قتلوا
بوليسي في «الزيادة»...

قالت الأولى، وهي تولول بصوت خافت وتضرب على
صدرها ضربات خفيفة:

- واثق من بوليسي انت ثاني، قتلوا زوجي، طفلة
(شابة) عائق معها واحد، ضربنا بالحجارة حتى
الموت...

اهتزت الثانية وقاطعتها:

- زني يبغي الشتر، ضربوهم حتى ماتوا؟

وظلت تتردد «ربي يبقي السترة» بصوت خافت وهي تواصل الاستماع لباقي القصة التي سردتها الأولى بكثير من الاختصار وبصوت منخفض وبعض الكلمات تكتفي بالتعير عنها بإشارات من يديها:

- قيل كان يغازلها... وكانا يلتقيان باستمرار...
ضغار ما يعرفوش ضلأخهم...
ولم أستطع سماع الباقي.

كانت السيدة قد انتهت إلى أن الحب عندنا تهذه ثورة بالحجارة. وكان الخوف قد ذب في نفسي، فكيف لي أن أستمع ببداية حب تهذه مسبقاً حكاية «أنا الغولة»... 11! شعرت بالبرد يحرك أسناني ويحدث الطقطقة بينها، أو بالأحرى بالخوف، فلم يكن البرد قارماً لدرجة اصطكاك الأسنان بعضها بعضاً.

إذ لم أعد أفرق بين البرد والخوف وأنا أنتظر رجلاً بصفة حية... .

فجأة قطع وصول الباص حبل مخاوفي، أشار لي توفيق من خلف الزجاج، فصعدت وجلست بقربه، وأنا أرتجف، قلت له ما سمعت، فأخبرني بما هو أقطع:

- بسيطة... هذان اثنان، فقد حدثت أشياء عجيبة في الليلة الماضية، هُذد كل الصحافيين بالموت، وكل النساء

غير المتحجبات وبياعي أشرطة الكاسيت والفيديو ورجال الشرطة؛ وقتل طالب جامعي بـ «الغيرمة»، والغريب أن الأمن لم يصل حتى خلا الحي كله من الطلبة لتبقى الجريمة غامضة.

نظرت إليه بخوف وقلت له:

- كيف عرفت؟

أجاب:

- البيانات تملأ المدينة، وقستطينة مثل بالونات الأطفال تنفخها إشاعة واحدة ويفجّرهما دبوس صغير، أما جريمة «الغيرمة» فقد أخبرني عنها عبد الهادي في الليل.

سأته بصوت أخفض:

- هذا هو الجهاد الذي تحدثوا عنه؟

قال:

- وأثن من جهاد... هذه لموضي.

ثم سكت قليلاً فقلت له:

- فيما تفكر؟

فقال:

- أفكر في بوضياف، إنه لا يكون في الجزائر إلا حين تكون فيها ثورة...

وصمت قليلاً قبل أن أقول له:

- ألا يمكن أن تتحدّث في أحد موضوعاتك العلمية البعيدة عن السياسة والوضع الأمني في البلاد، أشعر أن أطرافني انشلت من الخوف.
ضحك وقال لي:

- سبحان الله، أنت تخافين؟... لا أصدق... كيف تخافين وقد قالت لي حنان إنك كمشيت رجلاً تسأل إلى «نحاس» في إحدى الليالي؟

سررت حين سمعته يقول ذلك، فهذا يعني أنه يهتم بأخباري وقد وددت كعادتي أن أكون متواضعة أمامه قدر الإمكان:

- لا تصدّق كل ما تقوله حنان، فقد كمشته مع حراس الحي.

أذكر تلك الليلة جداً؛

سمعت صراخاً، وبعد لحظات كانت إحداهن تناديني:

- لويزا... هناك رجل في الحي، ماذا نفعل؟

كان تمخّصي للشخصية الذكورية يكفيني لأخذ سمة القوة، سواء أمام نفسي أو أمام غيري، فأنا أذكر جيداً حين كنت متحجّبة أنني أشعر بالضعف يرتدني على الرغم من أن المتحجّبات المنتميات للغيث نساء قويات، بل أقوى من رجاله خصوصاً خلال الإضراب، فقد أغلقن كل

الطرق المؤدية إلى الجامعة، بجلوسهن على الطريق وقراءة القرآن، وكن يملأن الساحات والملاعب والمظاهرات، وأذكر يوم جاءت فرق فنية من التوارق من أقصى الجنوب لتقديم حفلة بـ «نحاس» خلال برنامج ثقافي أقيم بقسنطينة ما الذي أحدثته من فوضى بالحي، فقد جلسنا في مسرح الحي ننتظر رفع الستار وبداية الحفلة بشغف، فللتوارق تقاليد جميلة يتميزون بها عن كل العالم؛ فهم الشعب الوحيد الذي يمنح السيادة لنسائه وقوة المرأة الترقية تصل إلى حدّ مواجهة المخاض وحدها، إذ تلد مولودها دون أن يراها أحد، وتعود به ملفوفاً إلى قبيلتها، عدا أنه شعب لون بشرته أزرق من جراء استعماله لحجر «النيلة» الذي يقاوم الشمس لدرجة أن الفرنسيين أطلقوا عليه اسم «les hommes bleus» (الرجال الزرق) يومها... وفي اللحظة التي بدأ فيها الحفل هجمت مناصرات الفيس على أعضاء الفرقة وتحول الحفل إلى قتال وكانت شعارات «الله أكبر... إلى الجهاد... أفضوا على الكفار...» ترتفع. هربت أغلب المتفرجات وقليات يقين للمقاومة وكنت منهن، فقد تألمت لمنظر أعضاء الفرقة المسالمين، الذين أشفقوا حتى على آلتهم الموسيقية الغريبة فلم يستعملوا غير الأيدي للردّ على ضربات العصي.

وانتهت الحرب بعد تدخل الحراس، لكن يومها أصبح واضحاً أنّ بنات الحي انقسمن إلى من ناصرن القيس ومن وقفن ضدّه ومن هُزمن من حزب «HTML» أو «خبيشة طالبة نعيشة» أمثال نرجس وغيرها من اللواتي لا علاقة لهن بما يحدث كيفما كانت الظروف.

أنا أنا فقد كنت من القسم الثالث، إذ لم تكن تعينني السياسة في شيء، ولكنني دخلت في تلك الحرب بشكل عفوي، وربما تعاطفاً أكثر مع الموسيقى والفن.

أغلب فتيات الجناح الذي أقطن فيه يعتبرنني رجل الجناح، حتى أن سهى الطالبة الفلسطينية المقيمة في ذات الجناح معنا والتي تنادييني «حسن صبي» وأنا أستلذّ الاسم، تلقّيني بـ «فتوتنا»، وكنت أتباهي كثيراً بهذا اللقب.

كنت أستغرب كيف تخاف مئات البنات من رجل أو اثنين أو ثلاثة رجال، من الشواذ الذين يتسلّلون إلى الحي خصوصاً في ليالي الربيع أو أوائل الصيف.

إذ كنت أعرف أنّ ما يلزمهن لهزم الخوف هو قليل من الشجاعة، ولذلك كنت أول من يخرج، ويشير الضوضاء التي تنبّه الحراس فتتبعني أخريات بعصي المكناس والسكاكين والمفصلات، ما يشكّل قوة تخيف أولئك

الشوادة، فيهربون، أما إذا تسأل أحدهم إلى دورة المياه فقد قضي عليه، نلقي عليه القبض، ولا أحد يخلصه من أيدينا إلا رجال الشرطة.

الخوف... notre maladie chronique (مرضنا المزمن) على رأي توفيق... والخوف من الرجل هو الدرس الأول الذي تلقته العائلات لبناتها، ولهذا تبدو خمسمائة شابة كمجموعة هائلة من الفئران يبحرهما قط واحد أعرج. كنت أكره في النساء هذه الخصلة.

وكنت أكره نفسي أحياناً للسبب نفسه، فالرجل هو دائماً القط الذي ينتظر فأرته في زاوية ما...

ومثلاً، قسنطينة مدينة تنام باكراً، ومن تأخر عن معاد نومها في الشارع يجب ألا يكون امرأة، فالقطط التي زادهما الجوع توحشاً تملأ الزوايا المظلمة.

تحدثت دون خجل مع توفيق خلال الطريق عن كل هذه الأشياء، لكنني شعرت ببعض الخجل حين نزلنا مشياً مروراً بسوق الفلاح نحو دار الصحافة، فقد كانت العاهرات كالعادة يعرضن «بضاعتهن الوسخة» على أصحاب السيارات الجميلة والنظيفة، وأصحاب الشاحنات، وأبناء الفقير الذين يشترون الجنس حين صار أرخص من الخبز.

كان غريباً جداً أن توجد دار الصحافة والمطابع وجرائد أخرى في منطقة معزولة مقابل حي قُصديري، وعلى رأي حنان «دار الصحافة في الخلاء، والحبس في وسط المدينة» كأن ما يحدث الآن محض له منذ زمن بعيد.

وقد توقعت يومها أن أجد على الأقل حارساً بمعنى الكلمة في الـ Poste de police (مركز الحراسة)، لكنني فوجئت بعلمي مسعود نصف نائم والباب مفتوح على مصراعيه، والكلب الهرم ذاته يتام قربه لكنه لم يفتح ولو عيناً واحدة ليشرنا بوجوده.

نظرت إلى توفيق بعد أن تأملنا هذا المنظر معاً لثوانٍ وقلت له:

- قلت لي هددوا كل الصحفيين بالموت؟

أجابني ساخراً:

- الحالة ميتة من غير تهديد.

لكن الوضع لم يكن كذلك في الداخل، فقد وجدنا كل الصحفيين والموظفين في مكتب يوسف عبد الجليل، يتناقشون في الموضوع والقلق باد على ملامحهم، وبعد التحية سألت أحدهم توفيق:

- واشئ الشَّايْبِ تاكمم لأغيبها ancien (قديم) مجاهد،

ماهُوشْ خايف؟

يستحي الشباب من قول كلمتي «أبي» و«أمي»
 فيعوضانها بكلمتي «الشايب» و«لغجوز» وكان البرح بحب
 الرالدين أيضاً قد دخل سلسلة الممنوعات.
 ردّ ترفيق!

- عندئذٍ cours (محاضرة) في الجامعة، الساعة 10:30
 بالضبط يكون هنا.

كنت أعرف أن الحب قد يهمل أشياء كثيرة لكن
 مواعيده دقيقة، ولا تختلف عن مواعيد الموت.

في الساعة 10:30 تماماً دخل، رائعاً كما رأيته سابقاً،
 أطلت مقلتاً مزيداً من الروتق في يده التي مدها لنا جميعاً،
 مرثراً في تحيته على نطق اسم كل واحد منا، ومن هنا
 عرفت أسماءهم جميعاً... -

أنا أنا فقد قال لي: «الهرابة».

له الحق... غيبي هروباً من التورط في تلايب الحب
 من طرف واحد لا من ملاحظاته حول نصرصي.

انسجم معنا بشكل عجيب، خلق معطفه، ثم «الجاكيت»
 وشمر عن ساعديه، وسأل قبل كل شيء عن العدد الجديد
 وكيف وجدوه وقد أعجبتني فيه تلك القدرة على احترام
 الجميع، وسماعهم واحداً واحداً، من الصحافيين إلى

العاملين بالإخراج والمصححين والفتيات اللواتي يعملن على صف المادة على الكمبيوتر.

ويقلب الصفحة بعد الصفحة، ويسجل ملاحظاتهم...

وفي الأخير قال لهم:

- طيب يا شباب هذا عن عدد اليوم، لكن قيل أن نتحدث عن عدد الأسبوع المقبل، أعرف مدى قلقكم من التهديدات الجديدة التي خضت الصحافيين وبعض الناس، وأولاً أريد أن أنبه إلى أن الصحافة لم تعد مهنة لمجرد الحصول على لقمة العيش، الصحافة رسالة، واختيار وليست كما يقول البعض: هذا هو القماش «اديّ ولاّ تخلي»، ومن يرى نفسه ليس أهلاً لها فلينسحب...

واتفقت كل الأصوات ألا تنسحب.

قال:

- عظيم... ولهذا يجب ألا تخافوا، أو تستهينوا بالأمر... لأننا مقبلون على مرحلة خطيرة، وأظن أنه لا أحد يعرفنا مثل أعدائنا، ولهذا أجد أن للفرنسيين الحق حين قالوا إن الجزائر ستمرّ بفترة عصيبة وخطيرة. وبحكم تجربتي أيضاً أشعر أن الجريمة ستزداد بشكل مخيف فعلاً... على كُفٍّ، منذ اليوم أريدكم أن تأنوا إلى الجريدة في أوقات غير محدّدة، ومن لا يريد أن ينزل إلى دار

الصحافة فليسلمني المادة في الجامعة، أو في مقهى بيروت أو يتركها لي تحت باب البيت أو مع توفيق، لا أريد أن أعرض أحداً للموت، ومن يريد أن يوقع باسم مستعار فليفعل...

وفي الأخير قال مازحاً:

- وإذا كنتم تريدون أن نحول الجريدة إلى مطعم فلنحولها، لكن المشكلة أن الموت يضرب أصحاب المطاعم أيضاً...

ضحك الجميع، وابتسم، كأنما سُرِّ لإعادة الثقة في نفوس صحافييه.

لكنه أردف:

- الآن فقط منعرف من يحب الصحافة، ومن يحب نشر اسمه في جريدة، والأعمار بيد الله... أليس كذلك شباب؟

قال تلك العبارة، بعينين معبأتين بجراح الماضي،

قالها، بلامح قاسية، وصابة ومختلفة وحزينة...

فتذخرت حزن خالي، ومرارة خبيته من أجل كل ما يحدث في الوطن. ابتسمت حين همزني توفيق من يدي وقال لي:

- أين صرت؟

إذ انتهت أن الجميع خرج، وأن يوسف عبد الجليل
ينظر إليّ وهو يشعل سيجارة ثم قال:

- يبدو أنها خائفة؟

فقلت له:

- فعلاً.

قال توفيق:

- سأصحح مقالتي مع إيمان، ثم أعود.

وخرج، وأنا يوسف، فقد جلس على الكرسي المقابل
لي وقال:

- يجب ألا تخافي من الموت ما دمت تملكين قلماً
حلواً، أو بالأحرى ما دمت تكتبين، فالكتابة أقوى
الأسلحة ضد الموت، ثم... في الأخير لن يعيننا إلا ما
كتب الله لنا.

قلت له:

- أخاف من الموت، أخاف من تلك اللحظة التي
تغادر فيها الروح الجسد، خيالي يتعيني في كثير من
الأحيان، أتخيل تلك اللحظة الرهيبية التي تغادر فيها الروح
الجسد الذي تمؤدته لتسافر إلى الفضاء، ثم لا أدري على
أي كوكب تحط، وماذا تجد؟

نظر إليّ، ابتسم عينا، وقال لي:

- طبيعى جداً أن تخافى من الموت، لكن أسئلتك يثيرها الذكاء، ذكاؤنا هو ما يتعبنا في هذه الحياة لذلك تجدين الأغبياء أسعد خلق الله.

ومرة أخرى وجدتي في مواجهته على انفراد، أفخر في أشياء تتعلق بي حين حدثني عن الذكاء، فكأنما أزاح الستار قليلاً عن جراحي، يوم لازمني الفشل في كلية الطب، ولازمني الخجل من مواجهة خالي على الخصوص، دون أن يستوعب أحد مشكلتي التي ورطتني فيها السلطات العليا للبلاد، بذلك البرنامج البيداغوجي «المدرّوس» من طرف «كوادرها» آنذاك، ولذلك بحثت لنفسي عن حلّ عند حكيم نفساني، إذ قلت له:

- لم أعد أرى فائدة من وجودي في الحياة، إني أستهلك رزق شخص آخر أحقّ مني بالحياة.

كان شاباً في مقتبل العمر، وبعد عدة جلسات عرفت أنه يعاني معاناة كل المثقفين في البلد، لكنه بحكم مهته، ينسى نفسه، وقد قال لي بصيغة من وجد حلاً:

- عادة «إن الأطفال الموهوبين ذهنياً يتحملون الإحساس برفض الآخرين لهم، واستبعادهم إياهم، فيحاولون أن يكونوا مثلهم، وأن يتخلصوا من ذلك الشيء الذي يجعلهم مختلفين عنهم، ويحول دون تقبل المجتمع

لهم، وهو سلوك انتحاري... إذ يبدأون في شنّ حرب شعواء داخلية على أنفسهم».

وكنت قد فهمت الصورة واضحة فيما بعد فإنا أن يخرب الطفل نفسه منذ الصغر، وإنا أن يصبح حادّ الطباع شرساً على كبير، حين يجد نفسه مهتماً أو طبيبياً بلا عمل، تضييع أيام عمره على الرصيف... لا أحد بإمكانه أن يفهم أطفالنا الأذكياء، نحن الذين أكلت الأمية النصف الأهم من شعوبنا.

لا أحد يعرف أن هؤلاء الأطفال هم في غاية الهشاشة، وأن الواحد منهم «إذا نشأ في وسط غير مناسب، حيث لا يهتم به أحد فإنه يدمّر نفسه تدريجياً، إذ نجده مع مرور الأيام يزداد انطوائية وينكمش ثم يذبل تماماً».

بعد سنة من ذلك الحديث الذي دار بيننا، عثرت على كتاب يشرح بالتفصيل كيف أن «الطفل العبقري، أو الموهوب ذهنياً يطرح دائماً أسئلة غير متوقعة، ونجده دائماً شارد الذهن، وكأنه في عالم آخر، كما أنه لا يكون بالضرورة متفوقاً دراسياً، بل على العكس قد يلازمه الفشل الدراسي في مرحلة عمرية معينة، وقد تدفعه ضغوط من حوله للإصابة بالاكتئاب /.../ والامتسلام له، حداً

على كل شيء، على فضوله، وعلى سعادته بنفسه، وورغبته القوية في التعلم، ويتنابه الإحساس بالملل القاتل، وتبدأ الاضطرابات النفسية بتهديده، بدءاً بالقلق العادي، وانتهاءً بالأمراض النفسية الجسدية والانطواء على النفس والعدائية والاضطرابات السلوكية؛ وقرأت تلك الدراسة التي أجراها «د. جوزيفي» على مائة وخمسة وأربعين حالة، تتراوح أعمارهم بين العشرين والخامسة والأربعين والذين كانوا جميعهم من الأطفال الموهوبين ذهنياً، ومروا باضطرابات نفسية في المراحل المبكرة من طفولتهم، وقد أظهرت الأبحاث أن 65% ممن شملهم الاستطلاع يترددون على العيادات النفسية، بينما ارتفعت نسبة الانتحار بينهم عن معدلها الطبيعي وقال الباحث: «هؤلاء أشخاص يطاردتهم إحساس بأنهم يعيشون على هامش الحياة، طموحاتهم متواضعة، والتجاذب الاجتماعي لا يهتمهم كثيراً، شيء واحد يهتمهم، الهروب من الإيقاع الروتيني اليومي».

بعد ستة أخرى من تلك الجلسة الجميلة التي جمعتني مع يوسف عبد الجليل كانت نتائج «د. جوزيفي» تتحقق على أرضنا؛ كان شعبنا يكمله قد بدأ الانتحار على طريفته، بدءاً باغتيال «بوضياف» في ذلك الصيف الحار،

إلى اغتيال رجال الشرطة والجيش، إلى اغتيال المثقفين،
إلى اغتيال مواطنين بأسباب أو بغير أسباب.

سنة تعمّدتنا فيها الخوف، وصار فيها الإقدام على
الموت متعة. ولن أنسى منظر ذلك الشاب الذي قفز على
بعد خطوات منا أنا وحنان، من على جسر «سيدي راشد»
ليهبوي على صخور «وادي الرمال» قطعة مهشمة، أكلت
تعاسات الحياة روحها.

إذ بسرعة تجتمع العارة على الجسر ليشاهدوا بقايا
خطوته المجنونة تلك.

قال أحدهم:

- تستعرف به، رجل ونص.

وقالت امرأة بجانبه:

- واش اللي تستعرف به يا مخلوق الله، كُندي على

مُيْمَنُه وَفِي رَأخ تبات الليلة...

فرّد آخر:

- والله فحل، نعلبوها دنيا.

قبل سنوات كانت جسور قسنطينة تستقطب السياح، ثم
صارت تستقطب المجانين، وشيئاً فشيئاً صارت تستقطب
متحرراً كل أسير على الأقل، أنا الآن، فقد ارتفع معدل
جاذبيتها للموت حسب حدة ما يحدث، وغلاء المعيشة

وانقلاب المفاهيم - كنا لا نسمع مثل هذه العبارات أمام
مواقف الانتحار. المتحر يقول عنه «لعمرك الله»،
صار الانتحار سلوكاً شجاعاً يباركه الشباب.
سنة...

ركضت فيها الأحداث بسرعة الضوء... «رمشة عين»
صرت فيها واحدة من أسرة جريدة «جسور» التي يرأسها
يوسف عبد الجليل.

وكنت قد انصهرت في اسمي المستعار مثله تماماً.
ذاك الاسم الذي اختاره لي ولهذا أحببته حتى نسيت
اسمي الحقيقي... «أمنة عز الدين»...
صرت أكثر اقتراباً من توفيق...
أكثر التصاقاً بيوسف،

أكثر تفهماً لحنان، وأكثر ارتباطاً بصداقتنا.
وأكثر حزنًا على نرجس التي انقلبت حياتها رأساً على
عقب إثر التحاق أخيها عمّار بمن سُموا أنفسهم الجيش
الإسلامي للإنتفاضة، كان قد صار في آخر سنة هندسة،
وأذكر أنني رأيت أكثر من مرة، في الجامعة مع نرجس،
متبسماً دائماً بشوشاً، خفيف الظل، نظيفاً ومهذباً،
كان يمكن أن يكون أي شيء إلا منظرًا،
لكن... الذي حدث...

بدأت نرجس تذبل وتضيق خطوط ابتسامتها في
تضاريس ألم ما .

في البداية كانت تتحاشى البقاء في الغرفة، وقد شعرت
بهروبها المستمر مني، ومن أحاديثنا اليومية حتى ظننتني
أسأت بحقها . . .

واجهتها بذلك مرة، فأنكرت، وواجهتها مرة أخرى،
أبحث عن سبب هروبها مني فيكت وصرخت بوجهي: «لا
تسأليني هذا السؤال مرة أخرى» وهربت كالعادة.
لكنها، قالت . . . ذات ليلة . . .

كنت عند سعاد ونوال فتأخرت بالسهر، وحين عدت
لمحت نور الغرفة من شق الباب، ولكن بمجرد أن
وضعت المفتاح بالباب انطلق النور.

دخلت فإذا بنرجس متصنعة النوم. ثارت ثائرتي،
فأضأت النور وصرخت فيها:

- لم لا تكونين صريحة معي، إذا كنت أمسبب لك
مشكلة بوجودي فأنا مستعدة لترك الغرفة.

فتحت عينيها على بركان يغلي،
عفت من منظرها لدرجة تلعثم فيها لسانتي وجمدت
مكاني حين قالت لي:

- لقد قُتل عمار يا لويزا . . . قُتل . . .

ولا أدري لماذا في تلك اللحظة بالذات تراءت لي صورته، وهو يمدُّ لي يده لمصافحتي في العيد الماضي قائلاً لي:

- مانيش خوانجی مَعْقُد... انتم المعقدين.

اتفجرت نرجس طوفاناً هائجاً:

- قُتل يا لويزا، وليس من حقي أن أكيه علناً، لأنهم يصفونه بالإرهابي، تلقينا الخبر سراً من أحد أصدقائه الغارين، أمي انهارت، والذي ردَّد «اللَّهُ أكبر» يرثي حلمه الذي قُتل، كان ينتظر نهاية السنة ليقال له: والد المهندس صار على مقربة من حلمه يدعى والد الإرهابي.

والذي الطيب الذي عاش فقيراً يحمده الله، لا يتأخر عن فروض الله، لا يتأخر عن واجباته، دوناً عن إخوته، كان أكثرهم فقراً وأكثرهم كرمًا و«خطية الثوليتيك لخلص» يموت ابنه البكر من أجل قضية غير واضحة...

كنت أنصت إليها والندم يوخزني لظنوني بها.

ما أبشع الموت حين يجيء في رداء اللذال، ما أفظعه وهو يضع نهاية لا مفر من تقبُّلها لباقي العمر.

قالت:

- دخلنا المقبرة نبحث عن أخي في الزاوية التي وصفها

لنا صديقه، فوجدنا بستاناً لا نهاية له من القبور، بحر من

الأموات لا أفق له، وقفنا حيث دُلنا الشاب، كانت عشرة قبور جديدة، وكان تحت أحدها ينام أخي لكننا لم نعرف أي واحد منها. لا يمكنني أن أصف لك ما رأيت وما حدث وما شعرت به، القبور لا نهاية لها، ونساء، نساء عند كل قبر. على مقربة منا كانت امرأة تنتحب بصوت عالٍ، فأمسكت أمني بيدها وراحت تواسيها وتحاول تهدئتها دون أن تتوقف عن البكاء هي الأخرى. وفيما بعد عرفنا أن ابنتها من الجيش الوطني، وكان أكثر شيء يكرهه كما قالت والدته هو حمل السلاح. أنظري كيف تساوينا أمام الموت، كيف تساوت الأمهات والشكالي واليتامى معاً.

لكننا بمجرد أن نغادر المقبرة تطفر الفروق على السطح، إذ يصبح عاراً أن نبوح بحزننا، فيما يعتلي الشرف أكتافها وأكتاف ذويها حسب نظرة الناس، هي يتفهمها المجتمع. نحن علينا أن نواصل الحياة بشكل يفوق الطبيعي، علينا أن نبسم ونضحك ونقوم بواجباتنا الاجتماعية، دون أن يحق لأم أن تتلقى العزاء في بكرها، زينة دنياها التي كادت تكتمل بتخرجه. لا يحق لها... كانت تتكلم وأنا واثقة تماماً أن كل ما قالت حقيقي وصادق. فالشعوب التي تدخل في حروب لا مفهومة هي

أكثر الشعوب احتقاراً للأمومة... مثلنا. والآن لماذا يُزج
بشبابنا في حرب كهذه «une guerre cachibée» تنواري بأسباب
تشبه شباك العنكبوت؟

يومها كتبت:

تلك الأم

التي تستحي حين يتنضح بطنها،

كأنها حملت جنينها سرّاً من رجلٍ ما غير زوجها،

تلك الأم

التي تخفيه هوناً، وتضعه هوناً،

وتحلم به رجلاً... قوة تزيل عنها همها،

تلك الأم

التي تنقاسم معه وحده أرقها، وألمها، وأوجاعها

فيما رجل هو زوجها يعيش على حلم ليس هو حلمها،

تلك الأم

التي تعدّ الأيام يوماً بعد يوم، المأ بعد الم،

ومدلة بعد مدلة وهي تهدر عمرها،

تلك الأم

التي تحرم نفسها من أجل لقمته،

وتلغي نفسها من أجل كرامته

تلك الأم، لا يمكن إلا أن تكون أنا جزائرية

تمارس أمومتها سراً
 كما تمارس المعارضة،
 ولهذا تعاقب اليوم تحت سماء لا تحيط بها الأسلاك
 بلغت جثة أحلامها
 مرة بعلم، ومرة بآلم
 وفي كلا الحالتين
 تلك جثة ابنها
 خارج تلك الأكاذيب التي تقسم حلمها نصفين
 ذاك إرهابي
 وذاك بطل
 من الإرهابي، ومن البطل؟
 وهي بعد لم تعرف قبر ابنها؟
 قدّمت النص ليوسف عبد الجليل، وكعادته أمسك
 النص بيد، وأشعل سيجارة بيده الأخرى.
 وراح يقرأ النص بصوته الفخيم، ويهدوه جعلني أشعر
 أنني لست من كتبه، بدا لي جميلاً أكثر، عميقاً أكثر وله
 دلالات أخرى لم تخطر ببالي في لحظة الكتابة.
 قرأه، ثم سكنت في الأخير، وظل ينظر إليّ للحظة
 تمثعت فيها بارتشاف جمال ملامحه، كان جميلاً فعلاً،

كيف غاب عني ذلك من قبل؟... لكنه قطع جبل خيالي
ذاك قائلاً:

- نص جميل، رغم بعض الثغرات.

- ثغرات؟

- لا تهم.. سأندخل، وأضيف بعض الكلمات، هل

تسمحين؟

- لن يصبح نصي أنا؟

سيظل نصك، وسأفرد له عموداً شرط أن تكتبي نصوصاً

أقوى، لكل أسبوع عمود.

عمود؟ (قلت له مندеше) عمود لي أنا... .

- نعم عمود. وقف وترك كرسيه ليجلس على مقربة

مني كالعادة، ثم واصل حديثه:

- هل تعرفين يا لويزا أنه طوال عملي بالصحافة،

صادفت أربع جزائريات أو خمس بجرأتك في الكتابة:

المرأة في مجتمعنا ليست مقهورة إلى الدرجة التي

يتصورها الآخرون لأنها هي تتنازل عن حقوقها في

الغالب، تنازل من أجل سمعة والدها، أو من أجل خدمة

زوجها وأولادها، تضحي من أجل بيتها، لكن كل تلك

التنازلات يقابلها الجميع بنكران للجميل، لأن من يتنازل

مرة يصبح من الواجب عليه أن يتنازل مرات... .

وقف مرة أخرى وتقدّم مني حتى صار خلقي، وانحنى عليّ وقال بكثير من المودة:

- حين رأيتك لأول مرة أدركت أنك متميزة، ولم تخيبي ظني، ولهذا لن أتخلّى عنك.

التفتت إليه قائلة:

- إنك تدعشني.

ولم أقف على قول باقي ما خطر لي من كلام،

فلم يسمح لي بقول المزيد بقوله:

- لك عينان ذكيتان وعاشقتان، أما الباقي فلم يكن يهمني.

كدت أقول له كيف رأيت ذلك؟

لكنني اكتفيت بمخاطبته بما هو أعنف من العشق بصمتي، فيما واصل حديثه.

- أرى فيك أكثر من نص، لكأنك قصة جاهزة للطبع،

أو كأنك قصة قرأتها، أحياناً يخيّل إليّ أنك سراب عفان لجبرا إبراهيم جبرا.

شعرت أنني تحوّلت إلى طابئة فُذِّف بها إلى السماء،

أخذت نفساً عميقاً عبّر عن كل سعادتني وقلت له:

- كنت دائماً أقول إننا لا نحبّ أن نقرأ إلا ما

يشبهنا . . .

فقال:

- هناك دائماً سبب متبعه الرغبة أو الحب أو الحنين يجعلنا نرى ذلك الشبه بين ما نحب ومن نحب، لقد أحببت زوجتي السابقة إلزا في اللحظة التي قدمت لي فيها نفسها، كان نطقها الجميل لاسمها شبيه بالقطعة الموسيقية «عيننا إلزا»، وكان عطرها مصادفةً شبيهاً برائحة تلك الأزهار التي أحب... قد نحب شخصاً من أجل أشياء لا علاقة لشخصه بها.

قاطعته دون وعي:

- إذن إنس تشيبي يسراب عفان.

علت ضحكته، وأظنته فهم تماماً أعماقي وخفاياها ولهذا لم يعلق على ما قلت سوى بضحكته تلك، ولكنه واصل الحديث من جانب آخر قال:

- أومن... أن نسيج الطبيعة والأشخاص يقابله نسيج آخر يحرك مشاعرنا في لحظة معينة هو نسيج الفن، أنا مثلاً لم أكن أسمع دُخْمَان الحراشي. لكنني بعد عمر طويل من الاستقرار، في فرنسا تجاوز الخمس عشرة سنة، التفتتني أغنيته «يا الرياح وين مسافر تروح تغيا وتولي» اعترضت طريقي في قلب باريس، لتقول لي عُذْ إلى الوطن! كنت قد تعبت من الحضارة الغربية، ومن صراعي

الدائم مع إلزاء، من أجل اللغة، والدين وقضايا أخرى كان ضحيتها ولدي، غريب أن نتخذ قراراً حاسماً، بسبب أغنية لكن هذا ما حدث فعلاً...

ما أجمل أن نتأمل الرجل الذي نحبه وهو يفك عقد فضولنا بحديث كهذا.

كانت كل تقاسيم وجهه تقول حزناً قديماً، وبداء ترتبان بعض الكلام بحركات ثقيلة وهادئة، يضم أصابعه إلى بعضها بعضاً ويجعل من إشارة يده تنمة لكلامه، كأنه الرجل الذي لا يحب أن يقول كل شيء، ويحب من محذته أن يفهمه دون أن يقول كل الأشياء...

كان دائماً لدي شعور بأنه رجل يخزن الكثير من الأشياء في غرف قلبه، يحب أن يفهمه الآخر حتى في حزنه، ولهذا ربما لم ينجح في زيجاته كلها. تلزمه امرأة تفهم حزنه الذي لا يبوح به، وتفهم رغبته قبل التصريح بها، وتقرأ الكلام في عينه حين لا يكون له مزاج لقول كل شيء...

كنت أشعر دائماً أنه الرجل الذي يحب كل الناس ويحب كل الناس، هو ناجح ومتألق كلما كان خارج البيت ولكن كابوسه الذي «يضيّق عليه النفس» يسكن معه في

البيت نفسه، إذ لم يكن يفهمه من حوله رغم فهمه للجميع...

قد أكون مخطئة... لكن شخصه... عينيه... يديه... كل ما فيه يؤكد لي ذلك...
يداء...

يا لهاتين اليدين اللتين كبلتاني عشقاً، ساعدها كانا يشعان شهرة، وأظافره القصيرة والعريضة والمقلمة بعناية تحمل أكثر من دعوة حب...

تذخرت حنان حين قالت لي ذات يوم...
- هذا الرجل، حين تراء امرأة لأول مرة يجب أن تقرأ عليه «سورة يوسف».

كانت تقول الأشياء مزحاً وشكلاً مبالغ فيه أحياناً لكنها تصيب القلب.

فقد خفت من نفسي حين لم أجد أرى فيه غير رجولته المفرطة في البهاء، تلك الرجولة التي تجعل من عقل امرأة حفنة من الجنون الذي يشبه جنون امرأة العزيز.
«يا يوسف... هيت لك».

أغمضت عيني وأمسكت رأسي محاولة العودة إلى مواعي الصلبة، فقفز نحوي بسرعة، هزني قليلاً، وقال لي:

- ما بك... لويزا؟

ماذا لو حدثت عن إسقاطاتي تلك، عن التصوص التي
حركتني وهزّت مشاعري من القرآن إلى الرواية؟ ماذا لو
قلت له إن «عيون إنزاه» لا شيء أمام ما قالته النسوة عن
نبيّنا يوسف. «ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم».

أي صدفة تلك التي تجعل منه يوسف آخر؟ أبعد عن
النبوة، وأقرب للحب، تجري من ورائه الجميلات
ورقيقات القلب، وتجعل مني نسخة عن امرأة العزيز؟
قلت له:

- لا شيء... أشعر بألم مفاجيء في رأسي، وبعض
الدوخة.

ركض نحو براده الصغير وسكب لي كوب ماء، وقد
بدا عليه الارتباك وهو يحمل الكوب، قال:

- أنا أحب الماء بارداً حتى في الشتاء، سأحضرك
لغيره.

قلت له:

- لا داعي... سأشربه، لا تزعب نفسك.

ظلّ راكعاً على الأرض بقربي، وحين استعدت بعض
هدوئي، قام، وجلس على الكرسي القريب مني... وقال
لي:

- تشعرين بتحسن؟

أومات له براسي أن نعم.

قلت له:

- أنت أيضاً تشبه نصرحك، أشعر أنك تخفي وراء كل

شخص من أشخاصك جزءاً منك.

قال:

- في الأدب، لا يمكن أن نحصر الكتاب وراء

شخصية واحدة إنه كل أشخاصه، لكن... .

سكت وخفض رأسه قليلاً، ثم ابتسم وواصل:

- أنا مثهم بكتابة الشر والفسوة وفضاعات هذا العالم،

فكيف تجددين الشبه بيني وبين نصوصي، (سكت قليلاً مرة

أخرى وأضاف) ألهذه الدرجة تجدديتي سيئاً.

قلت له:

- كنت دائماً أكره قصص الحب التي تنتهي نهايات

سعيدة، أكره الأبطال الضعفاء، الطيبين، المطحونين،

أحب القوة والفسوة، وفرض الذات، أحبك كثيراً حين

تكون منفعلاً مثل أبطالك وأظنك كتبت دائماً ما هو

موجود، لا ما يجب أن يكون، ولهذا أحبك الناس... .

وأحبتك... .

شعرت أنه سرُّ بما قلت،

رأيت ذلك في كل تقاطيع وجهه - وشيء ما قالت عيناه
فقط، وتلفتت عيناى فقط لم أجد له صيغة لغوية لكتابتته
على الرغم من أنني أحفظ بريقه إلى اليوم -

مرّت دقائق، صمتنا فيها... بالتأكيد هروباً من التوغل
في حديث خيوطه أكثر تعقيداً مما ترغّب فيه.

أخذت نفساً...

أشعل سيجارة...

ثم قال:

- ما رأيك لو نسّمى عمودك «كسور»؟

في تلك اللحظة دخل توفيق وقال مازحاً:

- كونى أنانية مثل أستاذك الساحر يوسف عبد الجليل،
هو سمى عموده «يا عين...!» نسبة إلى أول حرفين من
اسمه، أنت سمّيه «لو...» على التسق نفسه، لكن أيضاً
على أساس أنه كلام نسوان كله أمنيات وكلام فارغ، لا
مجال لتفعيلها على أرض الواقع.

توفيق... -

بهذوله، بمزاحه الخفيف، وبجبه المجنون لي،

كأنما دخل في تلك اللحظة بالذات ليقول لي:
«توقفي، أنا أحق بحبك منه»، هو ملأت تاريخه النساء،

وأنا لك وحدك. هو ما مضى وما كان، ما قد ينتهي حين
تبدئين، وأنا كل أيامك التي ستجيء... توقفي...
«لو...».

«لو» ماذا كان يقصد بالأمنيات التي لا مجال
لتفويضها... «لو»...

أكان يقرأ أفكاري، ويرى سرّ هروبي منه مرة،
والتصافي به مرات وفقاً لمزاجي ومزاج والده...
تلك اللعبة السخيفة التي لعبتها معه...

تلك الحماسة التي تجعلني أحقر حالي اليوم، والتي لم
أكن أعرف سرّها قط...

والتي قد تكون... «قسمة وتصيباً»!

كنت أعشق توفيق طالما يوسف بعيد عني، ولكن كلما
جمعتني به لقاء كهذا اختلّ توازني...
تماماً كما حدث ذات يوم...

كنت في المركز الثقافي الفرنسي، أحضر بحثاً في
الأدب المقارن حين فاجأني بحضوره، فلم أستطع إتمام
بحثي ولا هو استطاع التركيز على الدراسة التي جاء من
أجلها.

يومها كان موضوع بحثي «صورة الجزائر في أدب

كامور، قلت لتطويق: وقد كان حديثنا بصوت منخفض إذ
كلما ارتفع صوتانا قليلاً أشار لنا أحدهم بالسكوت:
- على أي أساس يصنفون هذا كاتباً عالمياً وذلك لا؟
فأجاب:

- إذا جئت عندي، فأنا أبحث عن مفهوم جديد
للعالمية.
قلت له:

- هذا ما أقصده، كامور مثلاً يكتب من منطلق
استعماري محض فكيف يكون كاتباً عالمياً.
قال لي:

- صحيح؟ ألا يعتبر كاتباً جزائرياً؟
قلت:

- لا أدري كيف يعتبره البعض كذلك، إنه يحب
الجزائر، أرضاً وسماءً وشمساً، كما يحبها أي فرنسي آخر
له أفكاره الاستعمارية، إنه لا يذكر في أدبه امرأة أو رجلاً
جزائرياً في هيئة «بني آدم»؛ إنه يذكر «امرأة قديمة» أو
«عربياً» يحضرون في نصوصه كعابري السبيل... كامور
بالنسبة إليّ كاتب ضيق النظرة، قاطعني:
- لهذه الدرجة؟
قلت له:

- ما العالمية إذاً، أليست لقباً اعتبارياً مُنح لشواذ
الأدب الأجنبي... .

قال:

- أنتِ تبالغين.

قلت:

- أتصوّر لو أنّ للغرب كاتباً مثل عبد الرحمن منيف،
أو سعد الله وئوس لأرسلوا طائراتهم لحرق كتبنا، ماذا
يعرف الغرب من المشاعر غير الدقائق القليلة التي
يمارسون فيها الجنس ليكتبوا أدباً إنسانياً يعتلي عرش
الأدب... .

قال:

- قد تكونين على حق، فالأدب ليس اختصاصي... .

قلت له:

- ليست المسألة، مسألة اختصاص، إنني أسأل، لماذا
نقرأ لبيتشه ولا نقرأ لطلح حسين، لماذا نقرأ جمال الغيطاني
بإعجاب وحب ونشوة، ونقرأ «بكيت»، و«بولير»،
و«اليوت» لأنهم فرضوا علينا في المقررات المدرسية،
مثلاً... ثم ندّعي على نسق من سبقونا أن هؤلاء هم
الأخري.

هل هناك شيء اسمه فعلاً «عالمية»؟

أنت كطبيب هل يمكنك أن تقبل هذا اللقب إذا ما
نسب لطبيب تميز باختراع؟

سكتت قليلاً، وبقيت أشير بيدي إلى شيء لم أجد
كلاماً للتعبير عنه، ثم واصلت الحديث:

- هل يمكن أن تكون قيمة الجائزة هي التي تحدد
عالمية الشخص فكلما كانت أعلى كان صاحبها أكثر
عالمية، أم يكفي أن يكون الغرب هو من يمنح الجوائز
لتصبح عالميين، إذا منحنا نحن جائزة أعلى من نوبل
لفنان أو كاتب أو سياسي غربي فهل سيترفون به أنه
عالمي... الشاب خالد يقولون عنه إنه مطرب عالمي
لماذا لمي نظرك؟

قال:

- لا أدري، ربما لأنه أوصل الأغنية الجزائرية إلى كل
العالم؟

قلت:

- إذا فالأغنية الجزائرية هي العالمية ما دام قد غنى ما
غنا، مثلاً أحمد ومهي، وأحمد ومهي غنى التراث؟

قال وهو يضحك:

- كيف تحللين الأمور؟

قلت له:

- أدفكها... بالعقل... وبذات التفكيك سأقول لك
إذا كانت العالمية تمتص كل ما هو جيد عندنا، فماذا
نملك نحن؟ نجيب محفوظ مثلاً اعتبره قد سرق منا، إنه
مصري ولا يجب أن تنغز بلقب عالمي.

شطبته على أوراقه وقلت له:

- هذا الغرب اللعين يأكل بعقولنا «حلاوة»، لم تكن
أسناتي تجد جواياً، ولم تعد لديّ رغبة لإتمام الدراسة،
ولهذا خرجنا لتتمشى بين ثانويتي الحرة و«يوغورطة» حيث
العشاق يتسكعون مساء الخميس.

لكنه مثل والده تماماً... أوقفني حيث كبرياؤه يقف،

وقال:

- لا أحب أن أكون عاشقاً بليداً يجزّ حبيبته على

الأرصعة.

لم أسأله ماذا يقصد، غيرت وجهة سيرتي معه، وملكنا
شارع سان جان الرئيسي حتى بلغنا «الفيلا» الرقم 25

توقف وسألني:

- هل تعرفين أن قسنطينة هي المدينة الرقم 25 من مدن

البلاد؟

قلت له:

- ها... ها... ها... ومن لا يعرف هذا يا ذكي؟

قال وهو يشير إلى رقم البيت:

- وفي هذا البيت ستجدين الوجه الجميل لقسنطينة،
زيتها، وأناقتها، وأصالتها، شعرها وموسيقاها وثقافتها.
سأنته مدهوشة:

- بيت من هذا... بيت ابن باديس؟

أجاب، وهو يقوم بحركة من يضغط ربطة عنق:

- ابن باديس لم يعيش أكثر من واحدة وخمسين سنة
والأ كان صاحب البيت تلميذه؟
قلت له:

- لم أحزر... من تقصد؟

مزني مرة واحدة وهو يجيب بخفة دمه تلك:

- بيت يوسف عبد الجليل.

وأخرج المفاتيح من جيبه ثم فتح الباب وقال لي:
أدخلي.

وقفت وقد تجمّدت رجلاي وقلت له:

- كيف أدخل؟

فقال مازحاً:

- برجلك اليمنى...

ضحكت وقلت له:

- ... أقصد... لن أستطيع الدخول... نخشم؟

فقال:

- احشمي غلى روحك، سأعرفك على جدتي، وحتماً ستكون قد حضرت «زخبيس سُحُونُ»؛ (نوع من الخبز الذي يحضر في البيوت) أو أي شيء طيب مع قهوة وحليب المساء.

- لا... لا... (قلت له) قد تظن بي الظنون...

لكنه أصر:

- لن تظن بك شيئاً، ستفقد صوابها من الفرحة إذا رأتك.

ترددت قليلاً ثم دخلت.

وفعلاً كانت رائحة شيء طيب تملأ البيت، قلت لتوليقي وأنا أشم الرائحة بشهية:

- إنها رائحة «خبز الدَّار».

فقال لي بالفرنسية:

- عشرة على عشرة.

لن أنسى منظر المكتبة العملاقة الممتدة من أول الرواق إلى غرفة الجلوس، مرتبة بشكل جميل ملفت للنظر. لن أنسى طيري الكناري أمام زجاج النافذة الكبيرة المطلّة على المطر، لن أنسى رفوف أشرطة الكاسيت

والأسطوانات القديمة، ومنظر الصالون تحت أنوار ثريا
تشبه المطر تماماً في يوم ربيعي.

كان صادفاً حين قال هذا الوجه الجميل لقسنطينة.
استأذن مني ودخل عبر رواق صغير إلى المطبخ،
سمعته ينادي جدته: مائة (مع تضخيم لحرف الميم في
المرتين) وقد عاد وهي معه بعد دقائق.

رحت بي كأنها تعرفني منذ زمن بعيد، امرأة في العقد
السابع من عمرها، لكنها تبدو أصغر من سنها بكثير تماماً
كأولادها، وجهها الناعم ما زال يحتفظ بأثار الجمال،
ولون متديلبها البنفسجي الفاتح تزوج بشكل جميل مع لون
عينيها الذي لم يكن لا أخضر ولا أزرق، ولا حتى
بنفسجياً كان خلافاً لا أكثر...

والدته...

هل كانت تعلم يوم أنجبت، أنها أنجبت رجلاً رائعاً
يسحر قلوب مئات النساء، ويغير مجرى التاريخ قليلاً
بوجوده...

لم تكن تعلم... كانت سعيدة ربما لأنه صبي وأسمه
«يوسف».

كانت في يدها «طوطة»، وقد عرفت أنها أنهت تحضير
خبزها للتو؛ أتممت مسح يديها، ودردشت قليلاً معنا، ثم

عادت إلى المطبخ فيما أمسكني توفيق من يدي، وقادني معه إلى غرفة أخرى، دق الباب ثم فتح، فإذا بقلبي يقات مني.

يوسف أمام أوراقه على مكتبه، مكتب صغير يستائر سميكة مغلقة، تثيره الأضواء الخافتة، وجدرانها تواجهنا بصور أغلبها بالأبيض والأسود تجمعها مع رفاق ميزت منهم بومدين وبوضياف، لكن في إحدى زوايا المكتب كانت صورة كبيرة ومختلفة، ليس فقط لأنها ملونة، بل لأنها للفنان مارلون براندو.

أما هو فقد كان منغمساً في الكتابة قبل أن تقطع جبل أفكاره. كعادته قال له توفيق مازحاً:

- قارتك الأولى لاحقتك إلى البيت اليوم.

تحفض يوسف نظارته حتى صارت على أرتبة أنفه، ونظر إلينا تلك النظرة التي تحمل أكثر من معنى، واتسعت شفتاه حتى أطل ذلك الزبح الجميل الذي يمكث بين سنه الأماميين وقال لنا:

- يبدو أن هذا المساء سيكون مميزاً.

وكان مميزاً فعلاً، على الأقل بالنسبة لي.

في ذلك الصالون الذي تزينه ذاكرة قسنطينة، جلسنا

حول صنبة «قهوة وحليب المساء» لشماس ذلك الطفقس
الجزائري الذي لا يخلو من التميز.

قال يوسف وهو يسكب لي الحليب في كوب كبير:
- منذ سنوات قال لي رجل على مستوى عالٍ من
الثقافة والمعرفة بتاريخ الجزائر، عدا أنه خفيف الظل
سريع البديهة وذو نكتة عالية، إن ظاهرة «حليب المساء»
هذه تعبّر عن نقص الحنان الذي نعانيه، (un manque
d'affection) لكنني وجدت فعلاً أن الفرد الجزائري يعاني
نقص الحنان خارج مزحة تلك.

- طبعي (قلت له) إننا لا نعرف أن نعبر عن عواطفنا.
فقال:

- تعرّفنا لأكثر من استعمار، على مدى آلاف السنين،
فكان يجب أن نؤجل عواطفنا إلى حين أن نستقل، وحين
استقلنا... كان الوقت قد تأخر لاستعادة عواطفنا.
قاطعته ترفيقاً:

- غلطان... إننا شعب بدوي، طعامنا الأول هو الخبز
والحليب، نأكل ما تنتجه أرضنا وحيواناتنا...
ونكزني وهو يقول لي:
- فككي يا صاحبة التفكيك.
فقلت له بصدق كبير:

- أرجح الرأي الأول، دون إنكار الثاني.

قال:

- أعرف لن تقفي ضد يوسف عبد الجليل.

نعم... لم يكن بالإمكان أن أقف ضده، كنت
أصدقه، وأحب تصديقه وأحب تلك اللعبة التي يشتهيها
قلبي: الامتلاء بحكاياء... قال توفيق مازحاً:

- برود الإنكليز كله من شاي ساعتهم الخامسة، نحن
نتدثر بدفء الحليب كل مساء، لننسى فجائعتنا...

وقالت الوالدة وهي تستجد بي بعينيها اللتين لم أحزر
لونهما بعد:

- هكذا حين يكونان في البيت، يتحدثان ما لا أفهمه،
دائماً، وجود الأنثى في البيت يعطيه دفئاً غير دفء
الحليب الذي يتحدثون عنه...
ضحكت،

سررت بالأحرى، وأنا أتوقهم أن مكاني في ذلك
البيت قد تحدد وانتهى الأمر...

بعض ما نحلم به أحياناً يشبه أحلام الفقراء بـ «بابا
نويل»... قلت لها:

- بيتك جميل، وأبتاؤك رائعون.

لم أنتبه... خزنت فجأة، ولم أفهم لم الحزن لكنها
اعتصرت ابتسامة وهي تتقبل مجاملتي.
كان يوسف جالساً إلى جانبها، وقد تفاجأت وهي تمد
يديها وتمسك برأسه وتقبله كما تقبل أي أم طفلها
الصغير، ثم قبلت كتفه فيما علت ضحكته تلك، وهي
تقول:

- الأم في الدنيا لها أبناؤها، وفي الآخرة أعمالها.
- صدقت يا أم يوسف، صدقت.
- قال توفيق وهو يقوم من مكانه نحوها ويعطيها خذّه:
- إنني أحتج، أريد حقّي.

كان كل ما يدور أمامي يحرك عواطفني بقوة، أهذا هو
الوجه الجميل لقسنطينة، هذا البيت المملوء بالحب،
ورجلان في منتهى الذكاء واللفظ، وامرأة تشبه جدتي في
عطائها...

قامت، قبلتني أنا الأخرى، قبلة الجبين تلك التي لا
يُمكنها أن تُنسى لأنها في الجبين، ولأنها تحتلّ مواقع
الحب والاحترام معاً.

لم أفهم لماذا نفاذ وراء أثر لمسة مثل قبلة أم يوسف
نحو الحلم ذاته الذي ابتدأه لمسة يد سابقة.
قبلتني... وقالت:

- سألف لك «شوية» (قليلاً) من خبز الدار» لتقطري به غدأً صباحاً. واتجهت نحو المطبخ.
- أمي تفعل ذلك معنا أحياناً، لكن في قبالتها دائماً طلباً أو رجاء سرياً لتعويضها عما فقدته...
- أم يوسف، كأنما تفعل ذلك مع أبنائها لتشكرهم في قبلة، أو لتبين مدى فرحها بمن أنجبت... أي شعور كانت تشعر به بالضبط؟
- لا أدري...
- لم أفكر كثيراً فيما حدث...
- قادتنا الحديث فجأة نحو الفن، حين سألت يوسف عن صورة مارلون براندو. قلت له:
- لماذا مارلون براندو مع الآخرين؟
- فقال توفيق:
- بابا فنان، ويحب الفن الجميل.
- وقال يوسف:
- «مارلون براندو يمثل مدرسة في الأداء، والتي هي مدرسة إيليا كازان، إنه ممتاز في أدائه والأداء الجيد يقدم فناً جيداً.
- قلت:
- تحب الفن لهذه الدرجة مسير عيد الجليل.

- من لا يحب الفن، إنه جزء من حياتنا اليومية، جزء من شخصيتنا أيضاً بحكم أنه جزء لا يتجزأ من المحيط الخارجي الذي يؤثر في تكوين شخصياتنا منذ الطفولة دون أن نتبه لذلك.

فقال توفيق:

- والذي مثلك يؤمن بقدرة الفن على بناء الذات، عدا فلسفته في قراءة الوجوه، أما أنا فلي وجهة نظر.

فقال له يوسف:

- أنت أفكارك كلها منطرفة في هذا المجال.

- لا يحق لك أن تحكم بالتطرف على أفكاري لأنك منذ البداية كنت معارصاً على التحاقي بالجامعة الإسلامية ولهذا ترى أن كل أفكاري لها علاقة بها... .

- لا أبدأ، أعرف أن أفكارك علمية أكثر من أفكاري، لكن ما يتعلق بالفن ليس اختصاصك.

نظر إليّ توفيق قائلاً:

- بشرفك قولني لي، السينما أو تحديداً الفيلم المصور ألا يعني صورة مصغرة عما يحدث في الحياة.

قلت له:

- بشكل ما نعم.

فقال:

- ما المانع في اعتبار السينما محاولة لرؤية ما يراه الله، أو أخذ مرقدته بمحاولة لصنع «ماكيت» للحياة ومراقبة ما يحدث عليها بالفرجة، بعد أن فشل الحكواتي، والنص المكتوب على بلوغ تلك المتعة؟

قاطعه وقد أصابني الفزع:

- أب... أب... با... با... با... إنك تفكر بطريقة مخيفة، هل تظن أننا بحاجة إلى نظرية كهذه في زمن يتمسك فيه الإرهاب بأي سبب ليزداد عنفاً.
قال:

- قاتتها بنفسك، وهذا يعني أننا لسنا بحاجة إلى السينما.

قاطعه يرسف:

- شئت أم أبيت نحن في عصر السينما.

واقطعه ترفيق:

- غلطان يا أباي العزيز نحن في عصر الفرجة، وهذا يعني أننا نمر بأعس فترة في حياة الإنسان، فترة تعويض الفقر المادي بالفرجة.

فقال يرسف:

- لا أدري كيف تدخل الموضوعات ببعضها بعضاً.
قبل قليل قلت إن الإنسان يريد بلوغ السلطة الإلهية، لكن

اللَّهُ يقول: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾، فهل يمكن أن يبلغها بصناعة فيلم، والذي أنت نفسك سميت «ماكيت»، وهي بحجم الطرة إذا ما قارناها مع عظمة الكون الذي أتقن الله خلقه، وهنا الإعجاز الإلهي؛ أظن أنه علينا أن نحاول دائماً بلوغ تلك السلطة لشعر بعجزنا أمام قدرة الله... يبنى أن تسمى العصر عصر الفرجة، عصر الجوع، عصر الفقر، هذه وجهة نظرك، عصر الأنبياء والرسل انتهى يا ابني، وعصر القديسين والرجال الصالحين أيضاً، اليوم لم يبق في أيدينا غير الفن لنحارب به الفساد.

- أنا قصدت المتعة.

- أنت تتحدث باللغة التي لا يفهمها العامة، وهذه مشكلة المثقف في المجتمعات العربية، لغته تفوق مستوى فهم مجتمعه ولهذا يُفسر كل كلامه خطأ...

- أنا أفكر كيف أحاطب مجتمعاً يفوقنا مستوى.

قاطعته:

- بوقت السينما؟

قال:

- أنا أقول لسنا بحاجة إلى سينما، نحن بحاجة إلى

الحقيقة المصورة، إلى التحقيق الحي، إلى كشف خبايا الواقع.

قلت:

- والسينما تفعل ذلك.

قال:

- كلام سيئما يعني، من يصدقه، من يتحرك لتغيير وضع ما يزعمنا بعد رؤية فيلم؟

قال يوسف:

- إنها وسيلة تعبير يا ابني وأحياناً وسيلة تعبير مزعجة لبعض الجهات، إنها كاشفة لحقائق وحاملة لأفكار...

قال توفيق:

- لا أحب التمثيل على كل حال، التمثيل أول فاعل حرك الإرهاب، إنه يحارب الرذيلة كواجهة، لكن ضئاعه يمارسون كل المحرمات، كمن يضحك على المجتمع، يعني حلال عليهم حرام علينا، يجب أن يحاسبوا اليوم على هذه الازدواجية.

قال يوسف:

- هذا ما تعلمته من جامعتك الرخامية؟ أنت لا تعرف أن الفنان الحقيقي حياته كلها أخطاء وأخطاءه تلك هي

المصل الذي يحقن به نفسه قبل أن يتأكد من صلاحيته،
ليستعمله الآخرون.

ردّ توفيق:

- لماذا تنزعج من بعض أفكاره؟

فقال يوسف:

- لا أنزعج، لكنك أصبحت تفكر مثل أغلب طلبة هذه
الجامعة، أففكم ضيق، لا تفكرون إلا في إقصاء ما هو
موجود، كيف تواجهون الغرب غداً بكل ما لديه من قوة
وإمكانات، كأنكم تحاربون ما هو موجود عندنا ليحل
محله ما هو موجود عندهم لا غير، تنظفون لهم الساحات
والأراضي والمصانع، وحتى العقول... ليرتفعوا على
عموش كل شيء. لاحظ أن المواطن العربي يشاهد
الإنتاج المصري بمعدل أربع ساعات في اليوم حسب
دراسة قامت بها طالبة عربية في بلجيكا - حسب
معلوماتي - إذا ألغينا هذه الأربع ساعات استناداً إلى
فتاوى خاطئة، وحاربنا سينماتنا وتلفزيوناتنا هل نظن أن
كل الشعوب العربية ستغضب عيونها أمام برامج الهوايات
المفجرة وتنام باكراً...

قال توفيق:

- لا يكون هناك هوايات مفجرة.

قال يوسف:

- لماذا ترفض حضارة الآخر؟

فردّ توفيق:

- أنت أول من رفضها.

وحلّ بعض الصمت، لكن الحديث فيما بعد أخذ مساراً علمياً محضاً. ما أبي أصواتهما،

ما أبي حديثهما، وصراحتهما!

ما أبي ذلك البيت...

يا الله...

كان كل شيء مهياً لأنتهي عاشقة من جديد لأحدهما،
للاكثر تجاوباً معي ربما.

لكن من هذه التي يمكنها أن تقاوم جاذبية رجل ذكي
وناضج؟

من هذه التي لا تصاب بالإرهاق نفسه الذي أصاب به
أنا حين أكون أمام يوسف وتوفيق معاً؟..

في ذلك اليوم بالذات، كنت على وشك الميل كل
الميل إلى توفيق لكنني شعرت بذلك الخوف «العرقى» فينا
والذي يتأهب للحرب كلما أطلت عليه فكرة جديدة.

حين استأذنت للذهاب وقف توفيق ومدّ يده لوالده وقال

له:

- أيرضيك أن تعود قارتك الأولى إلى الحي في هذا الوقت المتأخر بمفردها؟
فمدّ يوسف يده إلى جيبه وأخرج مفاتيح السيارة وسأله إياها وهو يقول:

- لن أرضى طبعاً، لكن لا تحاول أن تسقط نصوصي من على رطوفها... وغمزه مبتسماً.

وقد حاولت رفض أن يوصلني بالسيارة، ولكنهما أصراً، وقد رأيت ذلك الشيء... الشيء نفسه في عيني يوسف، ذاك الشيء الذي يسقط في عيني وينزلق نحو القلب...

تخيلت أنه تواطأ مع أسباب كثيرة ليسألني لتفريق، وربما فعل ذلك ليختبر صحة البريق الذي يقرأ دائماً في نظراتي، كنت صبية صغيرة أمامه...

لكن هل يمكن لمشاعر الأثني أن تقاس بالسنوات حين تبيض بالحب؟ لاحفته ببيض مراهق، وسألمته يدي لا لأصافحه، بل لأمسك بلمسة يده مرة أخرى.

تلك اللمسة التي أطلقت ألعاب النار في داخلي. لم أنظر إلى عينيه، خفضت نظري قليلاً لأرى يدي في يده، صغيرة تستقر في سمرة أراضيه، مفروسة بين أثلامه،

دافئة، نشوى بذلك الاحتواء الذي اخترعته الحضارة
ليختصر ما لا يمكننا البوح به حين يتناها جنون الحب.

تأملته واقفاً تعالي الكبرياء كضيه...

ثم... خرجت أنا وتوفيق.

حين أصبحنا وحيدين في السيارة، عرفت أن توفيق
استدرجني إلى جلسة حميمة وفق خطة قلب.

كان قُطعها حليب المساء وخيز جذته؛ طعم يابق بفتاة
على وشك النضوج مثلي.

لم أقل له لماذا سلك الطريق نزولاً نحو «لابريش».
أحييت أن يطول الطريق بعد أن حلّ الهدوء على المدينة.
قال لي:

- قسنطينة المدينة الوحيدة التي توصف بالثقافة والعلم
وتنام باكراً. كانت الساعة تشير إلى الساعة مساءً تقريباً،
وكانت المدينة لا تجربها إلا الأضواء وخيالات مشردين.

فجأة أشار توفيق إلى أحدهم وقال لي:

- هذا عياش يذاكر تحت عمود الكهرباء.

لا يمكن لذاكرتي أن تستعيد مدى قسوة البرد في
قسنطينة، لا يمكنها أن تصوغ بلغة مدى جمالها ليلاً في
ذلك البلاد، لكن ألمها كان كله جالساً في شخص عياش
المنكمش دون معطف تحت عمود النور ليقرأ دروسه...

قلت لتوفيق استفسر عن السبب:

- أزمة سكن؟

فأجاب:

- عندنا الفرد في حد ذاته أزمة... (سكت قليلاً ثم

أردف) أربعة عشر فرداً في غرفتين، الصغار ينامون،

والكبار يحثون عتماً يؤجل نومهم عدة ساعات، عياش ينام

في الرابعة صباحاً بعد أن يخرج أخوه محي الدين إلى

العمل، أما أخوه السبتي فقد اختار الجبل-

سأته مذهوشة:

- إرهابي؟

فقال:

- لا أدري كيف أسّيه، منذ سنوات وهو عاطل عن

العمل، وقد سافر إلى أفغانستان لمدة سنة، وحين عاد لم

يمكث طويلاً بين إخوته، اختار «الجهاد في سبيل الله»

حسب مفهومه الخاص.

- إنك تمزح.

- لا... لا أمزح للأسف.

- وصديقك يظل تحت عمود النور حتى الرابعة

صباحاً؟

أجاب:

- لا، ينتظر حتى يخلو الجامع من «الإخوانجية» ويصلي فيه حتى مطلع الفجر، يصلي ويعود إلى البيت، في السابق كان يذهب مباشرة إلى الجامعة لكن أتباع الفيس حوّلوه إلى قاعة اجتماعات وأحياناً إلى قاعة تدريب فصار يتفاداهم، عياش «حشيشة طالبة معيشة» مسكين...

- لكن كيف يتدربون في الجامع؟

- نحنا عندنا «الجامع والجمعة والجامعة» ثلاثة: عرف

كيف يستغلها «الفيس» لصالحه، ويستفيد منها.

- والدولة؟ والمخابرات؟

- مخابرات؟... اذهبي إلى بار فندق سيرتا ستجدين

المخابرات، هل تعرفين أن «الأفلان» حين أعلن الثورة ضد فرنسا منع على أتباعه تعاطي الخمر، أسألني يوسف عبد الجليل قد يعطيك التفصيل وحتى إقامة علاقات خارج إطار الشرع مع النساء؛ كان مبدأهم الأول التزام قوانين الإسلام، أما الثاني وربما الأهم فلأنه لا أحد يمكنه أن يبيع وطنه وهو في وعيه، كان ذلك الالتزام يقوّي إيمانهم بالقضية ويمنعهم من أي خطأ قد يسيء إلى الثورة.

- عفواً، ألا تعتبر الزواج بأجنبية خطأ في حق الثورة،

لمن فعلوا ذلك بعد الاستقلال؟

- هذا اتهام جديد ليوسف عبد الجليل

- لا، ولكن الالتزام يجب أن يتمسك به أكثر بعد الثورة.

- والدي كان يبحث عن مستواه الثقافي كما كل الذين تزوجوا بأجنبيات، كان قد سبق زمنه بكثير، أحياناً أشعر أنه من ذات سنتي، لأنه يساير قضايانا، يفكر بروح الشباب التي نفكر بها نحن، لكن مشكلته مع والدي كانت الدين والتقاليد، ولهذا انفصلا، أراد إنقاذ ما تبقى من حياته بإنقاذنا من مجتمع عرف كل مساوئه، لكنه تأخر في اتخاذ القرار.

- تأخر؟

- أختي «كاتيا»، لم تحتل العيش في الجزائر، إذ لم تمكث هنا أكثر من سنتين تقريباً، فرّت إلى باريس، وقد لحق بها والدي، لكنها كانت قد غادرت باريس مع شاب إيطالي، كل ما نعرفه عنه أن اسمه «ريكاردو».

- لا أصدق!

- لا.. صدقي... وصدقي أكثر مما يجب فالشعر لا يتبعه إلا الغاؤون...

- هل المسألة متعلقة بالشعر؟

- مشكلتك أنك تقرئين يوسف عبد الجليل وهو يقف أمامك لحمياً ودعماً، دعني الأدب على جنب، واقربيه

كإنسان، تلذكري أنه كان شايماً، له عفتوانه، نزواته، أفكاره المراهقة، وكل طيش الشباب، اليوم في أواخر الخمسين، صار في مقدمة أفكاره، وقبل هذا العمر كان يلهث وراء أفكار غيره، هكذا الأدب.

- هل تقصد أنه أخطأ في حقكم؟

- هو ووالدتي، هل تعرفين متى قرّر والدي أن يعود بنا إلى الجزائر؟ حين وجد أختي مصادفة وهي ابنة الخامسة عشرة بين أحضان شاب فرنسي في عقر داره، فيما أُمي مشغولة باحتساء قنينة نبيذ جزائري، ويكتابة قصيدة، وحين ثار عماً حدث، وصفت بالعربي القديم، ففي منطلقها الأنتى بحاجة إلى ذكر حين يتضج جسدها وطبيعي جداً ما فعلته كاتياً، بالنسبة إلى والدي كان لحمه يقتصب للمرة الثانية، وكان عليه أن يعلن الثورة من جديد لكنه هذه المرة لم يهتد إلى تنظيم دقيق مثل «الأفلان» لتحقيق استقلال جديد.

- تحزنتي بهذا الخير هل تعرف؟

- تصوّري حزنه هو... رغم ذلك الهدوء المخادع الذي يلازمه، أنت لا تعرفين طبيته بعد، وكم هو حساس، وكم هو متعاطف مع كل من يشكو له وجعه، لا تعرفين انفعاله، غضبه، إنه مغرط في كل شيء من هذا

الأشياء، مرة كاد يقتل أحد الصحافيين لأنه كان يُدخن في أحد مراحيض دار الصحافة في شهر رمضان، كسر عليه الباب، وظل يضربه حتى تدخل زملاءه لإنقاذه، تصوري أن الكل يعمل له ألف حساب، لأنه يفاجيء الشخص أحياناً بتغيير ما يراء خطأ بالقوة، وحدث مرة أن وجد في مدخل إحدى العمارات وهو يزور صديقاً له شاباً وفتاة يقبلان بعضهما بعضاً، أمسك الشاب ووضعه صفقة واحدة، جعلته يطلق ساقيه للريح، أما الفتاة فقد قال لها: أنظري إلى الجبان الذي تحبين تركك وهرب، فصارت تبكي وتستمحه... تستمحه هو (قالها ضاحكاً) لخولها منه.

- إنه رجل مسؤول.

- إنه رجل جرب كل أنواع الحياة. شبع.

- ما الفرق؟

- حياته مع والدتي كانت كلها خلافات حول الملابس والمأكول وطريقة الاغتسال، يصر أن ترتدي ما هو محتشم، وتصر على استغزازه بارتداء كل ما هو قاصح، يترجأها أن تقلع عن شرب الكحول، لكنها كانت تشرب حتى تشمل، وكان يقول لها إن الإنسان الغربي غبي، اخترع «البديه» ليستعمله مرة في الأربع والعشرين ساعة

هذا إذا كان ابن عائلة نظيفة ويتعايش مع وسخه طوال اليوم لأنه يكفي بتمسيح مؤخرته بالورق.
قائلته:

- لا... لا تفل إن الفرنسيين هكذا، إنهم يبدوون
أنظف منا؟
قال:

- مظاهر... إنهم أوسخ الشعوب في العالم.
- لكن والدتك مثقفة، والاعتسال سلوك صحي فلماذا
ترفضه؟

- من شبَّ على شيء شاب عليه، ولا حظي أن والدتي
أيضاً كانت تجد ما ترد به، كانت تقول لوالدي: إنني أرى
أبناء مجتمعك ذوي المؤخرات النظيفة كيف تنبعث منهم
رائحة العرق. وكان يرذ عليها قائلاً: هؤلاء لا يعرفون
الإسلام جيداً، وبينى وبينك لقد صدمت حين وصلت إلى
الجزائر منذ نصف الساعة الأولى، حين دخلت دورة المياه
لقضاء حاجتي، مراحيض المطار مثل المراحيض العمومية
ومثل مراحيض الجامعة طافحة بالوسخ، وحيطانها تحمل
أكثر من دعوة لممارسة الجنس مع رسوم غير مكتملة
لجهاز الأنثى؛ هذا غير العبارات البذيئة المتعلقة كلها
بالجنس، وأسئلة وردود، يتلذذ كتابها لتفريغ شحنة الكبت

الذي يعانون؟ يومها تذكرت ما كان يقول والدي لوالدتي في ساعات الغيظ ذلك، عن أن شارل ديغول نفسه اعترف في خطاب علني أن الشعب الجزائري مثال في النظافة رغم ظروف السجن والحياة في الغابات والفقر وغيرها، ويومها تساءلت ماذا لو أن ديغول زار الجزائر في عز استقلالها؟ وما زلت أتساءل إلى اليوم من المسلم نحن أم الغرب؟ الغرب يلزمه «رتوشات» بسيطة لحياته ليحقق فعلاً ما هو موجود عندنا في القرآن، أما نحن فيلزمنا الكثير.

- لهذا السبب التحقت بالجامعة الإسلامية؟

- لهذا السبب... كان بوذي أن أفهم هل العيب فينا أم في الدين؟ هل العيب في والدتي أم في والدي؟ أسألني كلها نبتت من هذا التناقض الذي عشته، وقد حاولت أن أجد مسلكاً وسطاً أتقبل فيه ما يحدث وأعيش فيه على الطريقة التي أريد فلم أجده إلا هنا (وأشار إلى رأسه) لا مكان لهذا المسلك على أرض الواقع.

قلت:

- غير صحيح هناك دائماً من يشبهنا.

- كنت صغيراً حين أقنعني والدي بطريقة علمية أن لحم الخنزير يضر آكله، لكنني صدمت في أحد العشاءات العائلية المميزة حين حضرت والدي طبقاً خاصاً من لحم

الخنزير لضيف عزيز، حين عرفت أنه طيب، يومها سألته كيف يتناول لحم الخنزير وهو يعرف تماماً أنه «يسبب الإصابة بديدان التريخينيا والتي لا توجد طريقة لوقف تقدمها حالما تحدث الإصابة»؛ كان يجب أن أسأله، لأنني كنت مقتنعاً حسب ما قرأته من كتب كلها لدكاترة فرنسيين أن لحم الخنزير مضر، ليس هذا فقط، ففي «أنحاء العالم التي يكثُر فيها استهلاك لحم الخنزير، وحيث تؤكل منتجات هذا اللحم نيئة في الغالب يصاب أكثر من شخص من كل خمسة أشخاص، ولعلّ العديد من الأوجاع والآلام التي يعزوها الناس في تلك المناطق إلى أسباب أخرى هي في الواقع ناتجة من إكثارهم تناول لحم الخنزير، وهناك حالة من عشرين في الأخير تصاب بالموت».

أجابني الحكيم بنبرة فيها سخرية على مسلم صغير، قال لي: لم يعد هناك أثر لهذا المعرض اليوم، هناك برادات.

فسألته: ماذا لو تأقلمت طفيليات الدودة مع درجات الحرارة المنخفضة مثلما تأقلمت عصيات السل وطفيليات أخرى مع ظروف حياتية جديدة؟ ماذا لو كنت أنا وأنت من الطبقة الفقيرة التي لا تملك برادات؟ ماذا لو صادفتنا

حرب وعقلت أهم كماليات الحضارة لمدة ستين؟ ... هل تعرفين أن مبدأ الإسلام الأول هو «الوقاية خير من العلاج»؟ لكن ضيفنا لم يعطيني يوماً أي تفسير، وعلى الرغم من ذلك لاحظت شيئاً من الإعجاب في لهجته وهو ينتفت نحو والدتي ويسألها:

- كم عمر هذا العصي إنزرا؟

والعجيب أنني بعد سنوات، عشت على دراسة في إحدى المجالات العلمية تبث أن كل ما نتناوله له تأثير في سلوكنا، ذلك لأننا نتناول جيناته التي تخزن سلوكه، هنا تذكرت والدي حين قال لي إن الخنزير هو الحيوان الوحيد الذي لا يغاز على أنشاء، وأن الغرب لا يغاز على إنائه مثلاً.

قلت له ضاحكة:

- نحن نكتم أنفاسهن.

فقال:

- نحن نحاول حمايتهن، لكن يلزمنا بعض الثقافة

لتصبح متزنين في تصرفاتنا.

نظرت إليه نظرة فيها شك ومزاح:

- وأنت ألم تلدق لحم الخنزير قط؟

- قد أكون أكلت في مراحل اللاوعي في صغري،

لكنتني على كبر، اقتنعت، ثم إنه حيوان قلدر، القذاره شيء غريزي فيه.

- إذا كان ما تقوله صحيحاً فكيف يتقبل الغرب الفكرة؟
 - الغرب في مجمله مسيحي، والمسيحيون أناس يحترمون دينهم رغم كل شيء، ربما إلى درجة مناقضة حقيقة علمية، وليسوا مثل المسلمين، فما أكثر مثقفينا الذين يناقضون العلم من أجل مناقضة الإسلام، والسخرية منه! أنا أتصور لو أن تحريم الخنزير ذكر في الإنجيل لمسح الخنزير من على وجه الأرض مسحاً... أوه لويزا ليت المسألة توقفت عند لحم الخنزير، أنا عانيت مما هو أشد.

نظر إليّ قليلاً كأنما ينتظر مني أن أسأله ما الأشد لكنتني لم أفعل، كان ليل قسطنطين يشذني، أضواؤها المتعانقة، هدوؤها المخيف، وحشيتها، أشباحها،... ولا أدري إن كانت كل المدن شبيهة بها في الليل، أم أنها مدينة متفردة بذاك الجمال. كدت أقول لتوفيق: أحبها،

لكنه سبقني حين واصل كلامه من جديد:
 - ما عانيت أكثر هو تأثير الكحول.
 قلت له بدهشة:

- أدمنت؟

قال:

- والدتي شبه مدمنة، في البداية أظن أنها تزوجت والدي كتأكيد لمناصرتها القضية الجزائرية، تباغت بذلك الزواج في السنوات الأولى، ثم لم تعد تستطيع مقاومة تلك الإشارات الخفية التي يرسلها الساخرون إليها، أحياناً عند نقد نصوصها، في الندوات والملتقيات، وأحياناً في اللقاءات العائلية، حين تدخل في نقاشات رأسها دائماً زوجها الجزائري المسلم. هل تعرفين تعاطي الكحول «ولو» بكميات قليلة يؤثر في دقة الكلام للشخص وسيطرته تماماً على قدراته العقلية، وقد يلجأ الإنسان أحياناً إلى الكحول كي يخمد ضميره «الحركة». كانوا كلهم يتعاطون الكحول، «الفرد الذي يحترم نفسه عادة، ويتقيد بأحكام القانون يوافق بسهولة تحت تأثير القليل من الكحول على السلوك الشرير، ويعتمد بعض الناس الذين يشعرون بالخجل وعدم الأمان على جرعة من الكحول كي يمكنهم فعل الأشياء التي قد يترددون في فعلها من دونه ومن السهل أن يلجأوا إلى الشرب بانتظام بعدها، ومن هنا يبدأ الإدمان عند الأشخاص المكتوبين، أو غير المكتوبين، عدا إصابات بأمراض أخرى مثل ذات الرئة نتيجة الشعور

الخطأ بالدفء والتعرض للبرد، أو الأمراض الزهرية،
أو تليق الكبد.

قاطعته:

- ترفيق أحياناً تتعيني بمحاضراتك، يكفي ما سمعته
اليوم عن الفن والدين وكل ما أثرته أنت ووالدك من
حديث، دعني أستمتع بذكري خبز جدتك.

- تقولين هذا الكلام لأنك لم تعيشي ما عشته، أسألتك
منحصرة في الأدب وحقوق المرأة، يزعجك أن نجيب
محفوظ سرقه منا القرب مع أنه في نظري فرض أدبه على
الغرب، ولا يزعجك أن مشروباً غريباً يعمل على تخريب
خلايا العقل العربي يتسلل إلينا بتصريح وترحيب منا، لا
يزعجك أن الأسرة عندنا رغم تماسكها عنصر مفكك في
الداخل، غير منتج، والأسرة عندهم رغم تفككها تعطي
أفراداً منتجين، لا يزعجك أن مجتمعهم المدمن أو
المتعاطي للكحول له القدرة على تسيير مؤسساته بدقة،
وانجباب علماء، وقادة أقوياء، ونحن رغم كامل قوانا
العقلية ضائعون بين الحانات والجيال والأرصعة المتخمة
بالعباد، لا... وفوق هذا نذبح بعضنا بعضاً، كيف يمكننا
إقناع العالم بروعة إسلامنا، بجماله، بسماحته، حتى
إعلامنا، يصر على تقديم شيوع يلحي مخيفة، وأصوات

حاددة، لا يتحدثون إلا عن النار والعقاب و... و...
و...

كان قد انفعلي قليلاً حين بلغ هذا المنعرج من
الحديث، فقاطعته:

- توفيق... أنا لا علاقة لي بما يحدث في العالم،
لكن يعني ما تعيشه أنت بين عائلتك، وفي محيطك
الصغير.

- محيطي الصغير هو سبب المشكلة، هو سبب كل
أسئستي الكبيرة، هل تظنين أن عباسي مدني اخترع هذا
التيار من مخيلته، لقد أبعد عن الجزائر بمنحة دراسية إلى
إنكلترا، لكن احتكاكه بالغرب جعله يكتشف حقيقة
الإسلام أكثر، بقي اختياره للطريقة التي يحقق بها أفكاره
هو الشيء الذي لم يعطه مزيداً من الوقت والاستشارات
لينجح.

- هل تعرف... لا أفهمك أبداً في أي صف أنت...
- أنا في صف والدي في الأخير... في صف عبد
الجيليل... يوسف...

- ألهذا الحد لم تكن لوالدتك أي ميزة؟
- والدتي شاعرة، والشعر ابن النزوات، لكن إن جئت
للحق أنا أحتفظ بذكريات جميلة عن جدتي «إجيني» ربما

لأنني أميل للدين أكثر، وهي مسيحية متدينة، مسالمة، محبة للخير، أذكر ليلة عيد الميلاد، عندها، الشجرة المزينة، الهدايا، الأغاني الهادئة الجميلة، ابتسامتها التي تملأ البيت، فضيانتها التي لا تخرجها إلا في المناسبات، شراشف العيد التي تجعل من البيت حديقة ريفية، طعامها الشهوي، وكنت أسأل وقتها من أحق بهذا العيد نحن أم هم؟... هل يمكن لإسلامنا أن يكون صحيحاً دون الإيمان بنبوّة عيسى عليه السلام، طبعاً لا، وهذا مذكور في القرآن، إذاً لماذا نبالغ نحن في رفض عيد كهذا؟ جدتي «إجيني» كانت تحب والدي وتحترمه حتى إنها تعمل في شهر رمضان على تحضير الأطباق التي يحب، فتركض إليه بأطباقها قبل موعد الإفطار وتساير.

- جدتك؟

- في طبيعتها ونعمومتها لا يمكن أن تجدي فرقاً بينها وبين أم والدي التي رأيتها، وأظن أن جدتي «إجيني» كانت السبب الرئيسي الذي ربط والدي بوالدتي كل تلك السنين، كان له أمل في أن تتغير وتهدأ براكينها، وتتوقف عن ذلك التطرف الذي تمارسه عن غير اقتناع لا بدينها ولا بدين والدي... غير ذلك كانت...

سكت قليلاً فقلت له:

- غير ذلك ماذا؟

- غير ذلك، كانت تحتاج دائماً إلى نزوة لتكتب مزيداً من الشعر.

- غريب ألم يكن يعلم ذلك من قبل؟

- الحب أعمى ma belle (يا جميلتي).

كنا قد صرنا بين الطريق المختصرة بين عمارة العلوم، و«زرزارة» حيث كلية الهندسة. أوقف السيارة قبل بلوغنا الطريق العام تحت الأشجار، وانطلق عذاد قلبي بأقصى ما لديه من سرعة فقلت له والغزع يلفت صوتي:

- عد بي إلى «نحاس» يا توفيق، أنا لست مستعدة لأموت بتهمة كاذبة.

ضحك وكأنه يستلذ خوفي:

- ألا تريد أن تسمعي قصة الحب المجشونة التي جمعت الكاتب الجزائري الكبير يوسف عبد الجليل بالشاعرة الفرنسية إلزا برونو؟

قلت له غامضة:

- لا أريد... أريد أن أكون في غرفتي الآن.

تغيرت سحنة صوته... صارت أكثر تعثراً بألم ما، وكأنما بدمعة ما، لم أستطع أن أراها في العتمة المحاصرة للمكان:

- ظننتك قريبة مني -

قاطعته بنبرة الغضب نفسها الذي اتابني :

- ليس في هذا المكان.

لم يأتني صوته لعدة دقائق. وظل الصمت يحاكي
أنفاسنا، حتى أدار السيارة من جديد، وعدنا تزولاً.

حين اقتربنا من حي «فيلالي» قال لي مرة أخرى بصوت
فيه كثير من التضرع:

- لم أقصد الإساءة إليك، وأظنك تعرفيني جيداً،
لست دنيئاً لويزا، لقد أردت أن تسمعيني فقط، في مكان
هادئ، صدقيني أنا بحاجة إلى التحدث معك.

- بإمكاننا أن نتحدث غداً في الجامعة.

- ضرب بيده على المقود وأدار رأسه صوب النافذة
بحركة سريعة وغاضبة، وقال:

- في الجامعة؟ لويزا... إنك تلعبين بمشاعري،
وتحرقين أعصابي في الجامعة أنت مع حنان قائماً، أو مع
نرجس أو مع سعاد أو آسيا أو أي واحدة من زميلاتك
كأنك بحاجة إلى حرس خاص، أو كأنك تتعمدين أن لا
تكوني وحيدة، في دار الصحافة إننا مع الزملاء أو مع
والدي، حتى أنني أشعر بالغيرة منه أحياناً، ماذا تقولان
طوال ساعة أو ساعتين معاً... وحدكما... في أي...

قاطعته بغضب:

- أظن أن باب مكتبه دائماً مفتوح، ورجاء لا تجرح
كرامتي مرة أخرى.

صرخ في وجهي بغضب حقيقي هذه المرة:

- لا تقاطعيني... تعلمي أن تسمعي ولو مرة واحدة،
... في حياتك... أنا... دون كل هذا العالم، أنا
أحبك لويزا... *mais mordre à la fin* إنك تشبهين والدتي
بشكل غير معقول... لك فلوك الخاص الذي تحشرين
فيه كل الناس في بوتقة واحدة... أنا... أنا يا
لويزا... أنا توفيق عبد الجليل... فرد ولست جماعة،
فرد، كيان مستقل... أريدك أن تشاركتي عالمي الخاص
جداً، عالمي الحميمي الذي لا يملكه أحد غيري والمقابل
أريد منك الشيء نفسه.

هدأ قليلاً ثم واصل كلامه فيما بقيت أنا صامتة:

- أحياناً... أحياناً فقط أشعر أنك تبادليتني الشعور
نفسه فيما في أكثر الأحيان أشعر أن هناك عشيقك السري
الذي يبعدك عني... ثم أشعر أنني أكرّر حياة والذي
بشكل ما، حتى اسمك يكاد بطريقة ما أن يصبح إلزاً...
وأكاد أكون رجل الاحتياط في حياتك لا غير...
سكت...

أحسست في صمته بكاء... في الحين الذي ظلت
 وغزوات حديثه تقرص جسدي، وانبعثت ذكرى سماح
 أمامي، ففكرت في نفسي، في قدرتي الذي يشبه قدر
 أمي... -

فكرت في قراءته لي... لم يكن في الأخير يقول شيئاً
 غير الحقيقة ولذلك صعب عليّ أن أوازره بأي كلام قد
 تكون له علاقة بالعاطفة بل حاولت أن نبعد معاً عن كل
 أشكال التوتر بصدق... فقلت له:

- كنت سعيدة جداً هذا المساء... أرجو ألا تشور
 لتظل ذكراً جميلة عندنا معاً.

خفت وطأة صوته، عزفت عزفها من جديد:
 - ليس مستحيلاً ما أطلبه منك، أريد الوضوح... لا
 شيء غير الوضوح لوضع الحدود النهائية لعلاقتنا.
 انتظر أن أجيب، فلم أفعل، رحت أفكر في الصيغة
 الأقرب إلى تفكيره، فيما مدّ يده إلى الراديو وكبس زر
 تشغيله فانبعث صوت ميراي ماتيو:

- Chaque matin je t'aime un peu plus fort

(كل صباح أحبك أكثر قليلاً من ذي قبل).

قال: أحبها حين تغني فقط.

ارتفع صوتها مرة أخرى:

- Allo... est-ce-que tu m'écoutes encore?

(ألو، هل ما زلت تسمعني).

- moi je vis de ton sourire

(إني أعيش بابتسامتك).

- moi je vis de ton regard

(إني أعيش بنظرتك).

قلت له:

- أحب هذه الأغنية لكنني أحب فيروز أكثر، أعشقها.

انبعث صوتها خفياً:

et laissez moi te dire que je t'aime

(دعني أقول لك إنني أحبك).

واصلت حديثي:

- فيروز لا تغني، إنها تحرك القلب.

قال:

- تحينها لهذا الحد؟

قلت:

- أحبها فقط، أشعر أنها ستجرتني ذات يوم إلى

بيروت.

قال:

- عجيب!

قلت:

- العجيب أنني ولدت في اليوم نفسه الذي ولدت فيه .

ابتسم وقال بدعشة:

- واللّه؟... مصادفة عجيبة فعلاً .

ثم ابتسم أكثر وقال بخبث:

- إذا أنت من أصحابنا العقارب الناعمين، والعشاق

الأوفياء، من هذا الذي استحوذ على قلبك ولا تستطيعين

الإفلات من شياكه؟... لا تجيبي... أعرف كم أنتم

فظيعين في الكتمان... فلا تضيّعي بإجابة والسلام... .

كان قد لفت من قرب حي «جمال عبد الناصر» واقترب

من مبنى الإذاعة والتلفزيون، ثم توقف بعد بوابته بقليل .

ابتسم... .

وترك يده المملوءة بالحب تغازل شعري القصير، وغلّت

أصابعه أكثر من أغنية حب قرب أذني... ذقتي... .

شفتي... ثم جاء صوته:

- أسأل نفسي دائماً كم من الوقت يلزمني لأستوعب

سر جمالك؟

ابتسمت... وكدت أضحك... وأنا أقول له مازحة:

- الحب أعمى .

مدّ سبابته من جديد، ووضعها على عيني وبحركة

سريعة وهادئة وضع إبهامه على عيني الثانية .

صرت مغمضة العينين .

ولن أنسى . . .

قال لي : عادة ماذا تهدي من نحب؟

قلت له بفرحة الأطفال :

- أحضرت لي هدية؟

فقال : أنتِ ستهديتني هدية .

ورمى بشفتيه على خدي، قبل أن أستوعب ما يفعل .

أمسكت يده، وأزحتها عن عيني وأنا أتحنس دفة شفتيه .

- توفيق (قلت له، ولم أكمل لأنه قاطعني وهو يضم

يدي إلى صدره).

- لا تقولني شيئاً، كان هذا المساء استثنائياً، دعيه يظل

كذلك .

في غرفتي تنثر الفرح مني، وأنا أرقص مثل فراشة

مقبلة على الحياة في لحظاتها الأولى .

لكن لا أدري لماذا خطرت بيالي مقولة للكاتب سليم

بوفنداسة يقول فيها «عمر الفراشات قصير» وكأنه يقصد

فرحي بالضبط؛ ولهذا أسرع في فتح لفة الخبز لأشمتها

من جديد، تلك القطع الشقراء المزينة ببذور حبة البركة .

وضعتها على الطاولة أمام نرجس التي تجاهلتنني تماماً،

وقلت لها :

- أنظري ماذا أحضرت.

قالت لي بيروود دونما اكتراث:

- لا توقظي حزني بتصرفاتك الصيانية.

قلت لها كمن يورث تصحيح خطأ ما:

- أردت أن أوقف فرحك يا نرجس.

فرذت:

- إنما الأعمال بالنيات، شكراً.

همست مازحة:

- تذوقها ثم قلني شكراً... إنها من صنع حماتي.

نظرت إليّ وقد رأيت الفرح يستيقظ فعلاً في عينيها،

وقالت لي وهي تحاول كتم ضحكها:

- أحسبك أحياناً على خيالك الواسع.

ربما كان خيلاً... أو شيئاً يفوق الخيال... لكنه

أجمل ما أعيش وأجمل ما ضمّد خدوش الداخل فيّ.

تلك هي قدرة الروح على السفر، على التحرك، على

التواصل واختصار المسافات بيتنا وبين أناس نحبهم، نفعل

ذلك ربما من أجل ألا تموت أجسادنا من الوحدة، ننقلها

من ذلك الشعور المر بالاختراب وسط (أهل) لا يتجاوبون

معنا. تلك قدرة الروح على تضميد جراح الذات... .

الحلم!

وحتماً بين أحلامنا وبين الواقع مسافة تكاد تزول إلى الصفر وتكفي لأن يقال عتاً مجانين، ولذلك نجد في التاريخ أكثر من مجنون عبر حزنه بأحلامه، وقد يكون ليوناردو دي فنشي بمرناليته واحداً منهم، وأنا في هذه الحالة مثله تماماً.

قلت لترجس:

- سأدعو ماجدة وعلمية لتشاركنا الرليمة؟

فأجابت وهي تمتعض:

- ماجدة؟ بالله عليك لماذا تحبين الشواذ؟

قلت:

- غريب كل من له مزاج فنان تلغقون له تهمة

الشبهات.

- لا دخان بلا نار.

- يا سلام... إذا كان لا دخان بلا نار فعليك أن

تقبلي أن أحاك مات إرهابياً.

تغيرت نظرتها نحوي وهي تقول لي:

- أحياناً أشعر بالندم لأنني أحدثك عن خصوصياتي.

- عظيم... ولا تشعرين بالندم وأنت تشهمين فتاة

بالشذوذ الجنسي في فترة كهذه يقتل فيها المرء بأي سبب

مهما كان تافهاً.

- قولي هذا الكلام لمن يعرفها أكثر مني ومنك، بنات
الحي كلهن يعرفن ذلك.

- أنا سأقول لك من يقول ذلك... إنها سميرة تلك
العقرب التي سمّت نفسها أم عقبة، حين طردتها ماجدة
من الغرفة... البتت فنانة، وتحب الهدوء لتعمل، وسميرة
قلبت الغرفة إلى زاوية دروشة.

- حين تعرفين معنى الإسلام جيداً ستغيرين رأيك.
- يا سلام... والإسلام لا يمكنني أن أعرفه إلا من
أم عقبة التي تبعت منها رائحة العرق، لتستحم كما أمرنا
الله قبل أن تعمل على «نشر الدعوة» بالإشاعات.

وضعت بعض قطع الخبز في صحن وتركت بعضها على
المنضدة وهممت بالخروج وأنا أقول لترجس:

- اشترى لها زجاجة Déodorant (مزيل للروائح) ما دام
«أذاك عليها النيف».

وخرجت...

ذهبت عند ماجدة؛ كانت أنغام «كلايد رمان» تملأ
الغرفة وعلى الأرض أوراق وألوان، ولوحات... وكانت
هي وصديقتها علجية منهنكتين في العمل وفي حديث يشبه
الشجار...

قالت لي ماجدة وهي تقصد علجية بالحديث:

- لا يكفي أن اسمها لا علاقة له بالفن، ذوقها أيضاً لا علاقة له بالفن.

سألتها مازحة وأنا أغمز علجية:

- لماذا تحبينها إذاً؟

فقلت:

- اللّه غالب (مغلوبة على أمرى).

وقالت علجية:

- أنا الشر الذي لا بدّ منه، أو قلني أنا العقل المدبّر، ماذا كانت ستفعل في الامتحانات لو لم أكن إلى جانبها في تاريخ الفن العام والرياضيات والأدب.

وقفت ماجدة وراءها حاملة مسطرة، وراحت تقوم بحركة من يضرب الثاني على رأسه وهي تقول:

- وهذه إشاعة أخرى عني.

ماجدة كانت تعرف كل الإشاعات التي تتسلّى عديمات الضمير بحببها عنها نتيجة لذوقها المختلف في تسريح شعرها ولباسها وملازمتها لعلجية في كل شيء تقومان به، وحتى الحمام الذي تستحمان فيه معاً أسمته «حمام الملاطيلي» تكاية في من أطلق عليها إشاعة الشذوذ.

أذكر ذلك الفيلم جيداً، أهدته لي حنان في عيد ميلادي، وقد شاهدته عند سعاد ونوال لأن غرفتهما مجهّزة

بكل الكماليات بما فيها جهاز فيديو تستعيرانه أحياناً من
عند صديقيهما باديس.

شاهدت الفيلم، وأعدت مشاهدته في كوابيس ليلية لم
تتركني بسلام إلا بعد عدة أيام، إذ بات «رؤوف» يطاردني
في كل مكان تحل فيه أحلامي. أدهشني أداء يوسف
شعيان، وأذكر أن حنان قالت لي:

- لا يوجد فنان عربي بهذه الجرأة، كان يجب أن يكرم
بجائزة.

يومها قلت لها:

- الفيلم سحب من السوق، يعني صار في خبر كان،
وأستغرب كيف حصلت عليه. ولهذا لم يحصل لا على
جائزة ولا «عمار» مجتمعنا يعرف أن الفن تركيبة ذكية
لغضخ بشاعاتنا، ولهذا ستضسى أي محاولة جريئة لكشف
عاهاتنا. لكن هذا الفنان ذات يوم، أهديه أنا جائزة، عن
جرأته، وعن كل أدواره الجميلة.

يومها قالت لي بمزاحها ذاك:

- واشن تهديه.. قرعة ريحة؟ (ماذا ستهديه... زجاجة
عطر؟).

فقلت لها:

- سأهديه جزيرة... أو شاطيء حب كشاطيء الفتيات

الصغيريات بالقل... عندي شعور أنني سأصبح ثرية ذات يوم.

فقلت:

- لآلا أهذية المزيغ خير... ألهذه الدرجة تتوقعين أن تصيحي ثرية... الصحفيون والكتاب أفقر خلق الله... ماجدة أيضاً أحبّت الغيلم، ومن يومها استعارت اسمه، لتطلقه على الحمام النسائي الذي تتردد عليه مرة في الأسبوع مع علجية. لكن تلازمهما لم يكن فيه أي شبهة، كان لذيذاً كذلك مثل القائل «عيشة وبأنثو».

حمام الملاطيلي... يا للتحذي!! ورغم تردي على الحمام نفسه إلا أنني لم ألتقيهما فيه... التقيتهما لأول مرة في مكتبة الجيش بـ «La Place» (لا بلاس) كأننا تشاركاني في الطاولة أمام النافذة المطلّة على السماء...

قالت ماجدة:

- أنظري ألوان السماء ليست ناجحة اليوم.

تأفقت علجية وقالت لها:

- حتى رأي سبحانك عنك عليه نغذ... استغفر الله يا

ربي.

وكانت تلك أول مشاجرة بينهما أحضر فصولها المشيرة

للضحك وفيما بعد تعرّدت على شجاراتهما الخفيفة تلك، بل بالعكس، كان من غير الطبيعي أن يمرّ يومهما هادئاً دون خلافات.

تعرفت إليهما أكثر، لدرجة جعلتني أتعرف إلى كل
الفراد صفهما ليلي... عيسى... جمال... صليحة...
عاطف... زهية... والأخرين...

وسببهما أحببت مدرسة الفنون الجميلة قرب مبنى
البريد بوسط المدينة، أحببتها أكثر من الجامعة، وأحببت
مطابقتها وعفويتهم، وحريرتهم في تلقي الدروس...
الموسيقى، الحركة... وتلك العلاقات الغضة بينهم...
ماجدة كانت أكثر من موهبة...

رسمت يوسف عبد الجليل خلال محاضرة ألقاها بقاعة
الحفلات بالمدرسة نفسها ثم أهدت لي اللوحة التي علقتها
قرب رأس سرير في غرفتي بنحاس خلال سنوات
الدراسة، وما زلت أحتفظ بها بكثير من المودة
والامتنان... لها... ماجدة!



قامت علقية وغيّرت شريط الكاسيت لينبعث بعد
لحظات صوت شارل أزناتور ويملا الغرفة، فيما وقفت
ماجدة وارتمت على الأرض بحركة بهلوانية وقالت:

- لِحَلاصْ طَلَعْتَ رُوحِي... دَيْي يَرْحَمِ.

وَعَلَّقْتَ عَلَيْهَا عَلَجِيَّةً عَلَى الْفُورِ:

- بِنَسَبِ أَرْوَاحِ كَالْقَيْظِ عُمْرُكَ مَا تُمُوتِي.

وبعد عدة دقائق من مناوشة خفيفة جلسنا وتحذثنا عن المعرض الذي أقامه طلبة المدرسة في السنة التي مضت بمركز محمد العيد آل خليفة، بعد أن حدتنتني ماجدة عن الصعوبات التي تصادفهم كل سنة لإقامة معرض بما فيها المعرض الذي كانت تحضّر له. قالت:

- لا أعرف لماذا يصرون على عرض لوحاتنا في هذا

«الفراج» السخيف؟

قلت لها:

- واش بيّه محمد العيد؟ رايغ، غير شي les têtes التي

فيه برك (ماذا به محمد العيد؟ رائع، لولا الروس التي فيه).

فقلت علجية:

- بالضبط justement، ولهذا، العودة إلى الأصل

فضيلة، كان «فراج» والمفروض بخليوه «فراج» خبير، ويخليوه الرُجُلُ tranquille (مرتاحاً).

سألته ماجدة:

- أي رجل تصدين؟

تظاهرت عُلجية بالتعصيب:

- يا ناس... قُلْتُ لَكُمْ إِنِّهَا غَبِيَّةٌ. عَنْ أَيِّ رَجُلٍ
أَتَحَدَّثُ فِي رَأْيِكُمْ؟ عَنْ جَدِّكَ؟... عَنْ مُحَمَّدِ الْعَبِيدِ أَلِ
خَلِيفَةَ طَبَعاً...

وسرود رذت ماجدة فيما انفجرت أنا ضاحكة:

- أَسْتَعْرِبُ كَيْفَ أَنْ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَزْعِمُنِي لَا تَزْعَجُ
عُلْجِيَّةً تَمَاماً. هِيَ تَحِبُّ أَنْ يَكُونَ الْمَرْكَزُ الثَّقَافِي مُحَمَّدَ
الْعَبِيدِ مِثْلَ الْمَرْكَزِ الثَّقَافِي الْفَرَنْسِيِّ فِي نِظَافَتِهِ، وَصِرَامَةِ
نِظَامِهِ وَمَسْتَوَى رَفِيقِهِ، أَنَا لَا أُرِيدُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ قَاعَةُ
الْعَرْضِ نَاسٌ يَحْتَرِمُونَ الْفَنَّ؛ تَصَوَّرِي فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ
الَّذِينَ دَخَلُوا لِيَسْخَرُوا مِنَّا أَكْثَرَ مِليونَ مَرَّةٍ مِنَ الَّذِينَ جَاؤُوا
لِيُرُوا فَنَّا.

قَاطَعَتَهَا عُلْجِيَّةٌ:

- أَوْ... مِليون... بَرَّافٌ أَصْحَابِي. (مِليون... هَذَا
مِبَالِغٌ فِيهِ يَا صَدِيقَتِي).

فِيمَا وَاصَلَتْ مَاجِدَةَ كَلَامَهَا وَكَأَنَّهَا لَمْ تَسْمَعْهَا بِالْمَرَّةِ:

- مِثْلًا أَحَدُهُمْ قَالَ لِي: «أَنْتُمْ تَأْخُذُونَ بِالْبِزَافِ كَمَا لَا
يَقُولُ Les Beaux Arts (الفنون الجميلة) وَأَخْرَجَ قَالَ لِي:
«أَخْتِي... تَبْتَاعُونَ غَيْرَ تَحْرِيْبُشُوا، هَذِي تَحْدُمَةُ يَهْدُرُوا عَلَيْهَا

نَاسٌ عَاقِلِينَ»، يعني كلما أقمنا معرضاً أصحاب باكتساب
نفسى.

قلت:

- يجب أن تكون هناك بداية لكل شيء، وشيئاً فشيئاً
حتى يتعوّد الناس.

- إنه الانحدار قالت ماجدة، كنا في الستينيات ذواقين
للغن، في السبعينيات رجعنا «شويّة» للوراء، والثمانينيات
صرنا بلا ذوق، وفي التسعينيات صرنا نقتل بعضنا بعضاً.
فقلت لها:

- والله حُلبّيتي في هدي.. بقلنا الهزبة تسلك لينفتح
الحديث على أدمغتنا التي حزمت الحقائق ومربت نحو
الخارج، ويتحوّل حديثنا إلى بكاء لا جدوى منه فكان ما
يحدث في الجزائر مخطط له فعلاً لتفريغها من كل
طاقاتها.

يوسف عبد الجليل قال ذلك ذات مرة:

«الجزائر من أغنى البلدان الأفريقية بجغرافيتها وثرواتها
وطاقتها الشبانية لذلك ستعمل القوى الغربية على تعطيل
هذه الطاقات لفترة زمنية تكفي ليتخطى هؤلاء الشباب
المرحلة التي ينتجون فيها ويبدعون، سيتصرفون معنا
بخبيرتهم، بتجارب شيخوختهم ونحن سنعمل بحماسة

مراهقتنا، لن نحسن التصرف لأننا لم نبلغ سن النضج بعد، ولأننا نعيش في تلك الهوة التي يلفها الحياء والخجل والكبت والدكتاتورية الأبوية».

وأذكر أنه قال أيضاً في موضع ما من مقالاته:

«الإسلام تجاوز مرحلة رفع السلاح، وهؤلاء ليست غايتهم نشر الإسلام، غايتهم أن يأكلوا أحسن، ويشربوا أحسن ويتزوجوا، ويتجبروا، ويعيشوا حياة أقل بؤساً، مطالبهم الحقيقية تابعة من رغبات الذات لأن الإسلام اليوم بحاجة إلى خطاب علمي قوي ليتصور».

يومها قلت له: لماذا لا تكتب تجربتك في كتاب؟

فقال: تجربتي أمر من أن تكتب في كتاب، قد يكتبها أحد غيري ذات يوم، حتى لا أتهم بالمبالغة إذا فعلت ذلك بنفسي. لقد كنت كهؤلاء متحمساً لديني، وحين بالغتني الحب، فقدت توازني، تزوجتها شرعاً، وقلت غداً ستعرف الفرق بيني وبين رجال مجتمعها الذين عاشرت، ستعرف إخلاصي وغيرتي عليها، واحترامي لها، ولجسدها، ستعرف أنني لا يمكنني أن أطأها إلا إذا اغتسلت كما اغتسل للصلاة، أنا الذي ميّاني ديني طاهراً بالختان لأتوغل في جنتها، ستعرف أن قباتي لها تقوم على العبادة، وأنها عظيمة كلما زاد دلالتها وهي بين يدي،

ستعرف أن المملكة لها كلها وأنا العيد لها، لماذا نحب
امرأة واحدة... واحدة فقط، حين يصعب علينا امتلاك
كل النساء.

لماذا تقف أماننا في مواجهة الله، فتبدو كأنها أزاحت
الشمس قليلاً عن مدار الطبيعة، فنصاب بالبرد حين يكون
الصيف مجنوناً، ونصاب بالحر حين يكون الطقس شتاءً
عاصفاً؟

أي سر من أسرار الله خضها به؟

أي سر؟

لقد أحببتها دون سائر أميرات الكون، ونسيت من
سبقها من النساء...

نسيت...

بيوت الحب لا يملأها إلا الحب ولهذا هو تجربة
تتكرر حين ترغب في ذلك. وبيوت القلب قد تتحوّل
حسب انتقالاتنا لأصناف النساء إلى غرف مازكية أحياناً...
وأحياناً إلى غرف عامرات.

ها أنا أتذخر عائشة، تصحو قبلي، تغتسل، تقبل عليّ
بزينتها وقد ارتشفت نقطة من ماء الورد على الريق، تنزل
بجانها على جيتي، تقبلني وهي توقظني برفق، أشم الورد
من قدمها، من صدرها، من أصابعها...

تلقى التحية ورداً.

تغسرنى برائحتها البرية، فأسال حالى هل ما زلت فى
حَيِّ القديم فى قسطنطينة أم صرت فى الجنة؟ ..
بين عائشة والنزا صار القلب مزرعة لأعقاب السجائر،
كانت تصحو بثوبها الداخلى الشفاف متأخرة، مشيرة
وناعمة، بيضاء شهية مثل أشهى أجانها الفرنسية، التزم
السكون طويلاً قبل أن تتحرك وتنير أضواء عينيها، تنير
الغرفة قليلاً قبل أن تمدّ يدها إلى الجرس، وتطلب
الخادمة، تأتيها بالقهوة إلى السرير.

تشعل سيجارتها الأولى، تمدّ لى قطعة من
«الكرواسون» الساخن،

ها قد نسيث ما حدث بيتنا البارحة.

ها قد نسيث أين تراقصت أيدينا، أين تفاعلنا تحت ماء
الشهوة،

نسيث...

أين الورد؟

أين طهرت عائشة؟

- عذراً إلزاً، لا أحب «الكرواسون» محمولاً على بقايا
الحب، لقد تعلمت أن أفصل بين غرائزي يعازل من ماء.
أحب أن أزيل آثار تلك قبل تلك...

أحب أن أتذوق كل واحدة على حدة، كل واحدة على
 ذات الطهر. أه عائشة... «غيشة»!
 ما ألد قطعة الخبز من يديك بعد ليلة دافئة وحمام
 دافئ، ما أجملك متجددة!
 ما أبهى ذكراك اليوم في لحظة ندم!
 ما أبهاك!
 قلت له:

- ما هذه سيد عبد الجليل، ومددت له الأوراق التي
 وجدتتها على الأرض منكشمة، وسمحت لنفسى بقراءتها.
 قال وقد انتبه إلى أنني كنت أقف خلفه:
 - أوراق لا أهمية لها، إرميها.
 قلت له:
 - لكنه نص جميل.
 أجاب:

- قد يكون جميلاً، لكن فات أوانه... من الصعب أن
 نكتب بمعزل عن أنفسنا... إرميها يا لويزا، إرميها.
 قالها واستدار نحوي، ويبدو أنه وجد ما أراد، من
 رطوفه. رميتها، وبعد ساعات حين غادر قبلنا المكتب،
 هرولت نحو سلة المهملات بمكتبه، فرزت كل الأوراق
 التي فيها، فلم أجد تلك التي قرأت في غفلة منه.

وفي المساء تراءى لي أنني لم أجد أوراقاً قرأتها، قد
يكون قال لي ذلك في لحظة ضعف.

أطفأت النور...

أغمضت عيني...

وبدا الحديث بيننا...

كنت أنتظر الليل...

أنتظر مرعدي معه لأواصل الحياة أكثر عشقاً. أستسلم
لكثافة الحبر المنذلق على الكون ليكتيني قصة أخرى...
بالتفصيلات التي تمنيتها:
سأته:

- ما الذي تكتبه في الأخير؟ أيعقل أن نكتب أنفسنا
ونقول للآخرين ما نحن كمن يسبح على شاطئه مزدحم
«كما خلقتني يا رب؟».

- نكتب ما يؤازرنا يا لويزا، ما يؤازرنا.

حمت حوله كفراشة لا تعرف على أي زهرة تحق،
وفي الأخير قررت أن أجلس على الكرسي المقابل له...
ظننت بيننا منضدة صغيرة عليها آخر مقال لي «ثورة
المراهقين».

قال:

- العنوان جميل.

قلت:

- والمحتوى ما به؟

قال:

- المراهقون أداة... والشورة مبرمجة، هناك أدمغة
تختبئ خلف أصابع المراهقين... وهناك أخطاء
الدولة...

قلت له، وقد تذكرت موضوعاً مختلفاً تماماً:

- ذكرتني... اليوم آخر حلقة من المسلسل الفرنسي

«الطيور تختبئ» لـ «تموت»

Les oiseaux se cachent pour mourir

ألقى بيريق عينيه في عيني ثم ابتسم...

ابتسم... وابتسم...

حتى انفجرت ضاحكة... وقلت له:

- لماذا تنظر إلي هكذا؟

قال:

- تعجبتني قدرتك على التقاط على حبال الكلام، تنتقلين

في الغالب من موضوع إلى آخر دون أن يشعر محدثك

أحياناً أنك فعلت ذلك، هل فعلين ذلك عن ملل؟

قلت:

- لا... عن قصد.

وضحكت مرة أخرى...

فقال:

- أنت عفوية.

ضحكت أكثر.

نظ هو الآخر إلى حيث أردت الحديث:

- قرأت الفصة..

سأته:

- أحيتها؟

أجاب:

- أحيت العصفورة.

قلت:

- والخورى ألم تتعاطف معه؟ أنا أحبه أكثر؟

قال:

- أعرف... أعرف كم تحبته، لكنني لم أتعاطف

معه، شجعت على الحب...

ولم تكمل الحديث...

دق الباب فجأة...

دق بعنف.

فتحت عيني، كان قد حلّ الصباح، نرجس تصلي،

والباب ما زال يدق، قمت وفتحت، كانت حنان تقف
وعلامات المرض على وجهها.

- ما بك؟

- لا شيء.

قلت لها:

- كدت تكسرين الباب وتقولين لا شيء. وجهك كحبة
الزعفران، دخلت، ألقت بنفسها على فراشي الدافئ،
وتلحفت بالغطاء وراحت تقول بشيء ممزوج بالمزاج
والخوف معاً.

- دثروني... دثروني... أعطوني كأس ماء... كأس

حليب... n'importe quoi... (أي شيء) يا خوتي راح
نُمرت.

أمسكتها من كتفيها:

- ما بك، ما الذي حدث؟

قالت:

- الدنيا مقلّبة... قتلوا مخلوف بوخزر تاغ التلفزيون،
وفكروا قنبلة بطريق سطيف، و«الفويور» محاصر منذ البارحة
والمعركة مستمرة فيه إلى الآن، وقيل، أحرقوا مدرسة في
«الزيادية» و«النشخا» في كل مكان.

قلت لها وقد دبّ الخوف في كياني:

- كل هذا في ليلة واحدة.

قالت وهي ترتجف:

- خلاصٌ وضلُّوا نُقْشَطِيَّةً... منذ شهر قتلوا حكيم
تعكوشت، اليوم بوخزر وما زال وما زال... يعني من
اليوم فصاعداً لا تخرجني من البيت قبل أن تتروأى
وتصلي وتشهدى... وتودعي بيتك... والأعمار بيد
اللّه...

قلت لها:

- تمزجين حتى وأنت ترتجفين من الخوف؟

فقالت:

- حاشاك... من قال لك إنني خائفة... مُعَايَ رَمِي
والنبي أنا أرتجف لأنني لم أُنم طوال الليل، فقد كان
صوت الرصاص قوياً من جهة، ومن جهة أمطرت كثيراً
البارحة، لدرجة أن مياه المطر تسربت من السقف
وأهدت ليبتا.

اخضت ابتسامتها فجأة وأردفت:

- عشرون سنة ووالدي يقدم طلبات سكن... والآن
أماننا حل واحد من اثنين، إمّا أن نصبح إرهابيين أو نُقتل
على أيديهم مثلاً حكيم «أنهني المغبون» لو رأيت

«المبيريّة» التي عاش فيها لغلت خلمي يقتلونني على الأقل
إيديرولي جنازة كالتناس.

الغبين... كان مراسم الشعب الفقير، تلك هي الوصفة
القاتلة «وداوني بالتي كانت هي الداء».

قلت لزيماتي ليلى ذات يوم:

- انضمّي إلينا وكُلّي لقمة ساخنة معنا.

رذت وهي منكبة على أوراقها:

- إني أتغذى من حزني.

قال لها زميلنا نصير:

- بركاي من التفلسيف... الواخذ ما يضمّشش عُمره

كُلّي... خير ما يقتلوك جيغانة.

فردت عليه مازحة:

- أنت الّمي يقتلوك جيغان، غلى قد ما تأكلُ غلى قد

ما تبقي جيغان، «المزود الرقيق شحال نهز من ذقيق».

فقال لها:

- أنا المهم يقتلونني برصاصة.

ومدّ يده تحت «الجاكيت» وسحب مسدساً برؤوس

أصابعه ونظر إلينا جميعاً وقال:

- إنه مرخص... لكن يستحيل أن أطلق الرصاص على

أي كائن كان، أنا أناضل ضد العنف يا جماعة، فكيف

لي أن أقتل. إنني أحمله للاحتياط، إذا جاء أحدهم ليقتلني سأمنحه له ليطلق عليّ رصاصة واحدة وتزنيخ!
تفاجأنا جميعاً، ليلي توقفت عن الكتابة، أنا توقفت عن الأكل، حنان وجدت التعليق المناسب...

- يعني (عموماً) (en général) الصحافي مثل الكلاب الخوازم، يجب أن يُدرَّب على إطلاق النار في الأعراس قبل أن يخرج للصيد. فقال لها نصير:

- نخليهم يدبحوني خير؟

إلى أي حدّ نحن مسالمون؟ إلى حدّ صار أسانا دواء لكل فجائعنا...

نظرت إلى حنان التي ترتجف في فراشي وقلت لها:
- يُتعبني رأسي. إنه يعمل على صعيد آخر في كل وقت.

فقلت لي وهي تمسك الغطاء بشدة:

- زيني يُغيثك قلبي لرأسك أن يحضر لي كأس حليب سُكُون وبعدها شغليه في الأشياء التي لا تخصني.

- كنت أحلم حلماً جميلاً (قلت لها) قبل أن تدقني الباب، وتتطعمي عليّ أجمل لحظة في حياتي...

لم تعبا بما قلت، نظرت إلى نرجس التي أتت إقامة صلاتها، وقالت لها:

- دعي يقبل .

ودردشت معها قليلاً، فيما كنت أسخن لها الحليب،
وحين قدّمته لها فاجأتني بخبر صاعقة:

- حقّ جماعه، قبل لي أرسلوا تهديداً ليوسف عيد
الجيليل .. صحّ ألويزا؟

ارتطمت ركبتاي بالأرض، تراءى لي غيابه فظيماً، قد
يحييني إلى كومة رماد.

قلت لها وقد انقطع نفسي:

- لا أصدق .. من قال لك ذلك؟

- من يقول لي في نظرك؟ (راديو الرصيف) Radio
trottoir كلام من هنا وهناك، وقد ظننت أن اليقين عندك،
فتوفيق لم أراه منذ عدة أيام، «فص ملح وذاب» .

- وعلى كلّ أنت صرت أقرب مني إليه .

سكتت قليلاً ثم أردفت، وهي تقلد إسماعيل ياسين في
أدائه:

- علمناكم الصلاة، سيقتونا إلى المساجد .. أأست
زوجة ابنه بعد عمر طويل ..

- حنان لا تمزحي .. لا توفيق ولا حتى والده أشارا
ولو من بعيد إلى موضوع كهذا.

قالت:

- مُغْنَاها مَا كَأَيْنُ وَالرَّو... أنا سمعت الخير منذ ثلاثة أيام لكنني سألت عنك أول يوم قبل لي تركت الصف باكراً للتحضير للامسية القصصية التي نظمتها في الجامعة، وثاني يوم لم أجذك لا في الجامعة ولا في الجريدة وقالت لي نرجس إنك بمكتبة الأرشيف الوطني صح؟

ولم تعطي فرصة لأجيب، هي أجابت عني وواصلت الحديث:

- صح طبعاً، والبارحة اختفيت بعد المحاضرات مباشرة، لمحتك من بعيد حين خرجت من المدرج، وبعد لحظة اختفيت في الزحام، ولا أحد عرف أين كنت مع ملاحظة أن سي توفيق أيضاً لم يكن له أثر بعد الظهر يعني كنتما معاً، عرفت من نصير أنه غادر الجريدة باكراً.

- شارلوك هولمز يا مُحَايِنُكَ. علقت نرجس.

- شارلوك هولمز وتساألني أنا عن صحة الخبر، لقد أطلقوا الرصاص على شخص على بعد خطوتين مني في «رأس القنطرة» ولم أَر من أطلق عليه النار، وحتى صوت الرصاص لم أسمع، هل تذكرين ذلك؟... ولعلحك البارحة كنت مع توفيق ووالده وكل شيء كان طبعياً جداً في تصرفاتهما، لم ألاحظ أي شيء...

فقلت حنان:

- شأوية... الله غَالِبٌ عَلَيْكَ رَاسِكَ مَبْنِي طُوبَى طُوبَى.

وقالت ترجس:

- لا والله... رأسها فاعة سينما يتواصل فيها العرض

أربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين.

تركت حنان في الغرفة لتنام، فيما خرجت ولم أعرف
إلى أي اتجاه سأذهب.

إلى الجامعة؟ أو إلى دار الصحافة، أم إلى بيت يوسف
عبد الجليل؟ أردت الاطمئنان عليه قبل أن أفعل أي
شيء.

كان الوقت باكراً، ومن السخف أن أميل إلى الاحتمال
الثالث؛ وقفت في ساحة «نحاس» قليلاً حيث تتوقف
الباصات، ثم خرجت، عسى أن أجد توفيق في الموقف
المقابل للحي. لم يكن هناك، انتظرت فترة قصيرة وأخيراً
قررت أن أذهب إلى الجامعة.

ركبت الباص المتجه نحو الجامعة،

تحرك...

تحرك الشَّعر في صدري حين انزلت المدينة إلى
الوراء...

هاج، تبثر على تاريخ سيرتانا... عريد... سكر...

صرخ... لم يعد بين أيدينا كثير من الحياة... أو
متسع من العمر لتأجيل البرح حفاظاً على «الأصول»
مُدَّ يديك

إعبت بأثوابي

وإرم حداقتك الخريفية

في عمق أهدائي

وأطبق «شفاهك الظمأى»

أحجز لي أنفاسي

علمني سر الخلق

وسر الموت

وسر البعث

وقدرة الله

مُدَّ يديك

فتش عن الحب الذي أخفيه في جلدي

فتش عن اسمك في لغتي

وعنك في عرقني

وفي عطري

وفي أقلام الرنتين والقلب

مُدَّ يديك

قَبَّلتني

وامسك برأسي... بذاكرتي
 حاول أن تيقيني واقفة...
 قطع يديك
 قطع «شفاهك» طعم اللذة عاصفة... نائرة
 أو...
 أو بالأحرى ناسفة... لا تيقيني قائمة
 مَدَّ يديك
 حاصرني
 كي أسجن فيك
 ألسني خطاياك البدائية
 وحاكمني
 أصدر أحكامك بالمعنى
 بالسجن أو بالإعدام
 إني... وثقتك
 بالحب أو بالنكران
 إني «كالفيزا»
 في زمن «الفيزا» لبلد الجن
 صعب جداً نكراني
 وخطير جداً
 أن توهم

أن الحب
 لعبتك أو رغبتك
 فالرغبة مني
 والدعوة لك
 ومنك السمع والطاعة
 فشدُّ يديك
 فقد ألغيت مراعيتي
 وحجزت العمر طاولةً
 لأعيادك
 وأعيادي
 فشدُّ يديك
 إعبث...
 إعبث...
 إعبث... بأثوابي... بأهدائي... بأنفاسي...
 مدد... مدد يديك..

دخلت أول قاعة فارغة، أغلقت الباب خلفي، وكتبت
 كل ما كان يتوارد على ذهني، ثم حملت الأوراق،
 وتوجهت نحو قاعات التعليم المكثف للغات.
 رحلت أفتح أبواب القاعات قليلاً وأطل على من في
 الصف، كما يفعل أغلب الطلبة في الجامعة ليروا من في

الداخل لسبب فضولي محض تحوّل إلى خصلة يتوارثها الطلبة عن بعضهم بعضاً، جيلاً عن جيل -

كان يوسف عبد الجليل في القاعة 25 .

يا للمصادفة مرة أخرى... - الرقم 25

جلست على الحافة المقابلة للقاعات، وكان إلى جانبي طالب وطالبة يتحدثان عن موضوع يتعلق بفتاة، ولعلني دون قصد انغمست في ذلك الحديث الذي كان يدور بينهما .

- دعها وشأنها (قالت الفتاة) .

- إنه يحبها... وهذا فرصة لها، إنه شاب ممتاز (قال) .
فقالت له :

- إنكم تضيعون وقتكم معها، يكفي المرأة أن تكره رجلاً واحداً فقط، لتكروه كل الرجال .

- لكنه انتهى من حياتها -

- انتهى... لكن آثار الجرح لم تنته بعد .

وقاطعهما شاب مرّ بالقرب منهما، قال للذي يجلس :

- واشنُ مُحَمَّدُ تُعَدِّي عَلَيَّ لُغَشِيَّةً؟ (هل تمر عليّ هذا المساء) .

- إيّه إيّه... كيما تُفَاخِمْنَا .

- هَايَا أَمْتَعَاشُ مَالَا (ناتفي إذا عشنا) .

- أَمْتَعَاشُ أَكْمَالٍ (إِذَا عَشْنَا يَا كَمَالِ).

وعاد إلى حديثه مرة أخرى مع الفتاة:

- شَوْفِي سَامِيَةَ، أَنَا الَّذِي عَلِيٌّ ذُرْتُو، صَاحِبِي مَا عَتَدُواش
الوقت يَلْعَبُ، عَلِيٌّ بِأَلِكْ نَاسٌ مُلَاخِ، وَلَذُ فَا مِيَلِيَا (ابن
عائلة)، يَخْدُمُ فِي السُّرُنَاكُومِ، وَقَادَرُ يَخْطُبُهَا الْيَوْمِ،
وَيَتَزَوَّجُهَا كَتَخْلَصُ قَرَايْتَهَا.

- اسْمِعْ مُحَمَّدُ، «أَغْطِيْزَهَا» وَقَتْ تَنْسَى صَدَمْتَهَا، زَاهِرُ
ابن عمها من طعمتها في الظهر، وَلَذُ غَمَمَهَا مَا شِي
بِرَّانِي... (ليس غريباً).

إلى هنا كان كافياً جداً أن تندفق صورة حبيب من عمق
ذاكرتي لتعكر صفو يومي، وتحفر خندقاً أكبر حيث معدتي
المحفورة بالقلق.

وقد تراءت لي تلك الخدعة التي التهمت براءتي،
كالكابوس الذي يعترض طريقي أمام كل رجل...
الكابوس الذي يزيد تردي تجاء توفيق... أو تجاء
والده...

العنبة التي تجعلني أقف بين طريقتين غير قادرة على
حسم الأمور، وكأنتني عن قصد أبحث عن رجل مستحيل
لئلا أرتبط برجل.

فماذا لو فاجأني من أختار بذلك الشيء الشبيه بحبن
ونذالة حبيب؟

ماذا لو انكسرت بلورة أحلامي؟
بأي شيء سأضيء ليلي؟ وأملأ الحُجْر التي يحجزها
غياب والدي؟ وحاجتي المتوحشة تلك إلى حنان رجل،
... إلى حماية رجل؟ أين أدفنها؟

كان يوسف عبد الجليل واقفاً أمامي، انتبه إلى وجودي
أمام القاعة بعد خروجه من صفه، فيما سحبتني هواجسي
إلى موضوع آخر...

نظرت إليه...

أحببت المبادرة منه... لكنني أحببتها بفائض من
التأثر، والخوف عليه، أجهشت بالبكاء حين مدَّ لي يده.
اقترب مني أكثر وعلامات القلق على وجهه وقال:
- ما بك؟ ماذا حصل؟

قلت ما استطعت أن أصرغه من كلام:
- هل فعلاً... هل تلقيت... قالت لي حنان ذلك
اليوم...

كنت خائفة حتى من نطق كلمة «تهديد».
خَيْلٌ إِلَيَّ أَنْ يُوْحِي بِهَا سِجْعُهَا تَحَقُّقٌ، مَعَ أَنْ صَحِيحٌ

الطلية كان أكبر من أن تسمع أبعد من تلك المسافة التي تفصلني عنه. قال لي:

- نُوْضِي وَتُبْعَدُ نَهْدُرُو (قومي وفي ما بعد نتحدث) فقمنا، ومدد ذراعه، واحتضن كتفي، شد بأصابعه على أعلى ذراعي ومشينا نحو الخارج.

كان الضباب لم ينتشع بعد مع أن الساعة صارت العاشرة صباحاً، وكان الطقس بارداً كأنما يتنفس من قعر ثلاجة لكنني شعرت بدفته وهو يوقفني قليلاً ويجعلني أستدير نحوه بحركة لم تغلطني تماماً من حضن ذراعه:

- هل تفصيلين أن نشرب شيئاً ساخناً أو ننزل دار الصحافة؟

قلت له:

- أريد أن أطمئن عليك... فقط.

فقال:

- أنا أمامك.

وكانما فهم ما أريد، قطعنا الساحة إلى موقف السيارات، وأجهشت بالبكاء مرة أخرى، وأنا في السيارة معه.

قال لي بصوته الغخم ذاك:

- الأمر لا يتطلب كل هذا البكاء.

قلت له:

- هذا يعني أنك تلقيت تهديداً فعلاً؟

قال بهدوء:

- من لم يتلقَ تهديداً بعد في هذا البلد؟ لماذا لم تبكي حين مُدِّدَ كل الصحفيين في بيان صريح؟ ثم لست أنا الوحيد الذي تلقى تهديداً، كل الشعب مهَّدد إذا لاحظت ذلك، ما دام رجال الأمن وأهاليهم مهَّددين، ومرطضي السياسة، والكتاب، والصحفيين، وكل من يتعاطى السياسة
... و ...

قاطعته:

- لكن التهديد الشخصي مختلف، إنه أكثر جدية، وهؤلاء الناس لا يمزحون...
قاطعني هو الآخر:

- لا شيء مختلفاً يا لويزا، مدير مدرسة الفنون الجميلة مهَّدد منذ أربعة أشهر، وما زال يمارس حياته وعمله بشكل طبيعي، وكم من أستاذ جامعي هنا، أعرفهم جميعاً، تلقوا أكثر من تهديد، ...

وراح يسمي لي فلاناً وفلاناً فقاطعته:

- والذين ماتوا... والذين هربوا... لا تحدّثني عن

الذين ينتظرون الموت. إن لك إمكانيات غيرهم، بإمكانك أن تغادر الجزائر وتعيش بسلام...
قال:

- الهروب لن يحل المشكلة... -

قلت له:

- كأن البقاء يحلها.

قال وهو ينظر إليّ تلك النظرة التي تقول أكثر من شيء:

- من قال لك ذلك، نحن نمرّ بمرحلة انتقالية، وأول شيء سنقوم به كصحافيين هو إعطاء قوة للصحافة، بعد أيام الانتخابات النقابية، سنغيّر وضع الصحافي في الجزائر، يجب أن نحياه ليصبح قوة فعّالة... الصحافي الذي تمتصّه جريدة وترويه من يحصل حقوقه، الصحافي المأجور من يرققه عند حدّه، الصحافة الصفراء من يوقفها، والعناوين التي تخفي مؤسسات مشبوهة من يكشفها، الصحافي المتسوّل الفقير من يعطيه حقوقه وأشياء أخرى وكثيرة يجب أن نغيّرها بأيدينا، لا بأضعف الإيمان.

قلت له وأنا ما زلت أبكي هاربة بنظري من عينه:

- أنت لا تعرف ماذا تمثّل لي، إنك الوحيد الذي

أعدت لي توازني... وبعض ما ضاع مني من ثقفي
بنفسي...

وكان بوذي أن أقول له المزيد، لكن الخجل هبَّ في
داخلي فاستسلمت لمزيد من البكاء.

لكنه فاجأني بحركة، أزاحت كل المسافة التي كانت
بيننا، طوّفتي ومزّز أصابعه على شعري، ثم جعلها تتغلغل
على مهل بينه، تحسّست قبضته الدافئة وهي تسحبني
نحوه، تلقي برأسي على صدره، تُسكنه بين كل حواسه ثم
أنزل شفتيه قليلاً، سكبتنا الكلام دافئاً على ملمس من
شعري:

- لا تبكي يا غزالي الصغيرة... لا تبكي... تعوّدي
أن تعيش جمال اللحظة، تعوّدي أن تعيش أحياناً على
انفراد، ففي كل الحالات، هناك احتمال قوي لأن أهدر
الحياة قبلك...

هناك احتمالات أخرى لا تتوقّعها ولكنها تحدث...
تمسّكت به...

ولم أكن أرغب في رفع رأسي عن أغنية قلبه المفعمة
بالحياة، لكنه بذات الرفق تناول بسيابته ذقني، وضغط
قليلاً بإبهامه عليه وهو يرفع رأسي نحوه ويقول لي:
- أنت جميلة حين تبسمين.

ومدّ يده الأخرى ومسح دموعي.

أذكر.. لم يستعمل منديلاً، مرّز أصابعه من تحت عيني
وعلى وجتي مرتين، مرة بوجه يده ومرة بقفاها.
ثم قال وهو يتسم:

- يا لهذه المدينة البليدة، تعطيك أكثر من فرصة
لتعاطي الشعر من أعفغه إلى أعفنه ولا تعطيك فرصة
لتجالس حبيبة.

أقال حبيبة؟

أنا غزائه الصغيرة؟

أقال ذلك؟ أم جاء كلامه مجازاً؟

لم أصدّق.. لكنني كنت متأكدة أنني سمعته، قال
ذلك، قال حبيبة، ولم يكن معنا غير ماجدة الرومي في
أغنية حب، قال حبيبة وخاطبني أنا، وقالت ماجدة أكثر
من مرة:

بُحْبِكَ... بُحْبِكَ... بُحْبِكَ...

وقد خشيت أن أطلب منه أن يعيد ما قال، أن يؤكد
لي أنني أنا حبيبته التي جاءته في موعد متأخر. خفت،
فاحتमित بابتسامة خفيفة، وكأنه هو الآخر احتسى بها ثلثاً
يستهلك طاقة حبه ذاك في أول لقاء صريح بيننا، فقال
لي:

- ألا محاضرات لديك اليوم.

أجبه:

- عندي نحو وصرف، وبلاغة، وكلا المقاييسين لا

يتناسبان مع ميولاتي...

ضحك وقال:

- هذه علامة جيدة، سيكون لك مستقبل في الأدب،

لكن عليك بقراءة القرآن، سيفويك معنوياً ولغوياً.

قلت له:

- لا أملك مصحفاً هنا والذي في البيت كبير.

فقال لي:

- عندي مصحف في البيت محفوظ في علبة جميلة،

جلبته من مصر، من زمان، سأحضره لك في هذين

اليومين، والآن، عندي مقابلة قصيرة في الراديو،

سأصطحبك معي، هناك تتعرفين إلى محاورتي، مراد

بوركوزازة، إذاعي ممتاز، وقصاص (مثلك) تحضرين

المقابلة بالاستديو، ثم تتناول ساندويشات بكافيتريا

الإذاعة، وتنزل معاً إلى دار الصحافة «كوتيس كدة»؟

ضحكت وقلت له باللهجة نفسها:

- كوتيس.

واصل الحديث وقد تحركت بنا السيارة:

- هل زرت القاهرة؟

- لا... لكنتي أحب أن أزورها... أحلم بزيارتها.
- إنها تشبه الحلم، جميلة... جميلة جداً خصوصاً في رمضان.

- المدن جميلة بأناسها.

- أوه... ناسها مهذبون جداً، يغرونك دائماً دائماً بأنك شخص مهم، بإعطائك صورة فخمة لك: يا بيه... يا باشا... يا هانم... أفندم... حضرتك... وأخذة بالك حضرتك...

ضحكنا معاً... فيما احترقت السيارة الضباب، وضغط هو على شريط الكاسيت، ليقطع إرسال إذاعة سيرتا، ويرتفع صوت «كيني روجرس»:

Lady

I am your knight in charming armor

And I love you

You have made me what I am

And I am yours.

لي فقط كان يغني.

لي فقط... بصوته الذي لا يختلف كثيراً عن صوت يوسف عبد الجليل في فخامته...

وكنت قد نسيت، أو تناسيت... آثار حديث الليلة
الماضية مع توفيق.

لا شيء اليوم يهمني غير آثار حُضن يوسف.



- كان ممتازاً يومي يا نرجس.

- اللهم أدمها نعمة (رَدَّت علي).

نسى الموت حين نحب فقط... ..

- أنا عاشقة... أنا عاشقة يا حنان... أنا عاشقة.

وقفت في منتصف الغرفة ورحت أقلد ماجدة الرومي
في رقصتها المميزة، وأرذد ما تبثي من أغنيتها تلك في
ذاكرتي..

«بحبك... بحبك... بحبك».

فيما حنان ونرجس تتبادلان نظرات الدعشة، ثم فجأة
ارتدت نرجس خمارها واستأذنت.

- لست مستعدة لسماع كلام في الحب، سأنزل لحضور
شريط متلفز عن الجماعات المسلحة.

وبرغم سعادتي، إلا أنني تذخرت جرحها، وتذخرت أنه
ما كان يجب أن أتصرف بتلك الحماسة والاندفاع الزالدين
للتعبير عن سعادتي خصوصاً أمامها، هي التي تركها
الرجل الذي يُفترض أن يكون حبيباً بمجرد أن بلغه خبر

مقتل أخيها، تصرّف كأبي رجل جبان وأُمّي رغم مستواه العلمي العالي، وقف في صف المجتمع الذي لا وجه واضح لديه على الرغم من أنها لم تقف ذات يوم في صف أخيها، كانت ضدّه حين تعلّقت المسألة بالعنف:

- نرجس... يا إلهي كم أنا غبية؟

- لا تقولني شيئاً (قاطعتني) إنه شريط عن النساء اللواتي اختطفتهن الجماعات المسلحة، وقد انتظرت منذ أسبوع، فلا تفهميني... خطأ.

خرجت... تاركة في نفسي ذلك الفراغ الذي يمتلئ بسرعة بتأنيب الضمير...

نظرت إليّ حنان معاتبية:

- أكان يجب أن تفعلني بهذه الطريقة؟

جلست على حافة السرير، وبدأت بخلع ثيابي، وقلت لها:

- كنت سعيدة جداً... فلم أنتبه.

فقلت:

- تنفعين دائماً بغائض من الحماسة، هذا سيؤذيك ذات يوم.

- أعرف، لكنني لم أعش شيئاً مماثلاً من قبل.

- سأل عنك توفيق مرتين اليوم، قبل محاضراته،
وبعدها.

- بقيت طوال النهار بالغرفة؟

- نعم، نمت حتى الرابعة بعد الظهر، وقد اتصلت
بوالدتي أستأذنها بالنوم هنا الليلة إذا لم يكن لديك مانع،
جسمي كله يؤلمني، ولست مستعدة بقاء ليلة تعيسة مثل
الليلة الغاتة.

- ولو يا حنان... إنك אחتي، هكذا نثرثر أكثر، أريد
أن أتكلّم عنه، أن أصفه، ألا أتوقف عن الحديث عن
تصرفاته، وروعته، و... هل تريدان اقتراحاً آخر، سأترك
لك مفاتيح الغرفة والخزانة خلال عطلة نهاية الأسبوع،
هكذا حين أصل يوم السبت صباحاً أبدأ مباشرة بالتعبير
عن شوقي إليه...

- أؤاءُ Taffaire (الحكاية) كثيرث.

- ظلي معي بقية السنة، نرجس لن تنزعج، بالعكس
إنها تحبك كثيراً.

ضحكت وهي تسألني مرة أخرى:

- هذا موضوع آخر، لم تحبيني ألم توي توفيق؟

- لم أره اليوم.

فتحت عينيها الجميلتين وراحت تنظر إلي، تتفحص مدى صدقية جوابي.

وقالت لي والدهشة منبثة من كل ملامحها:

- مع من كنت إذا؟ ... وعاشقة... عاشقة... مع من يا خائنة..

قلت لها:

- لم أعد بشيء منذ تعرفت إليه، كل ما بيننا مجرد صداقة؟

- صداقة؟ يا لئيمة! أي صداقة هذه؟ الرجل متيم بك، ويتوي الزواج بك حالما تنهين دراستك، وأنت تقولين من... يا... قة!!

- هو من يخلف، صدقيني لم أعد بشيء، إنه يعرف ذلك.

- أي رأي يا بنتي كلنا نعرف أن ما بينكما هو حب، ثم لم تشيري ولو مرة إلى عكس ذلك.

- بكل بساطة لأنه لا أحد سألني عن رأيي.

- ... يا تحلاي.

سكنت قليلاً ثم أردفت:

- لويزا... مع من كنت، من هذا الذي يستحق منك هذا الجنون، وهذه الطعنة لتوفيق؟

رحبت أتأمل فضولها وغضبها للحظات وأنا أرتدي قميص نومي ثم قلت لها:

- حسب ما سمعت منك الآن إذا أخبرتك مستغضبين أكثر.

- مع من؟ لا تقولي مع ابن عمك التذلل.
قلت لها:

- لا... كنت مع يوسف.

- وشكّون يوسف هذا اللي طلّعت يه جديد.

- يوسف... (قلت لها) يوسف كم يوسف تعرف... ..

تغيّر لون وجهها، وجحظت عيناها، وفتحت فاهها، وكأنها رأت مصيبة، وأشارت بأصابعها فقط ثم راحت ترؤد بصوت منخفض وأنا أنظر إليها صامتة:

- يوسف... يوسف الذي أعرف... الذي تعرفه أنا وأنت. سكتت للحظات، وأنا أترقب العاصفة التي ستهب من فمها بعد ذلك الهدوء.

وفجأة صرخت!

- يوسف عبد الجليل؟

- هو بالذات.

فقال بصوت منخفض هذه المرة:

- حتماً يشفق عليك... فلا تدعيني معه إلى أبعد من

هذا... إنه بعمر والدك... ثم هو يا لويزا رجل مختلف
 وحاد تجاء من يفهمه خطأ، لقد صفع مندوبة إعلانات
 ذات مرة أمام الملا لأنها حاولت إغراءه وقد كانت مالكة
 جمال، ماذا لو عرف مشاعرك... ماذا لو...

قاطعتها وقد انهمرت دموعي مرة أخرى:

- هل تظنين أن الحب يحق فقط لمالكات الجمال؟ أنا
 لا أفهمك أحياناً، لقد أخذني بحضنه، ضمني برفق،
 وشعرت بدفه أصابعه وهي تلامس جلدة رأسي، ضمني،
 احتواني كما أنا واحتويته كما هو...

اعترفت له بكل شيء، دون أن أقول أي شيء، ولعل
 الشيء نفسه. قد أكون تسرّعت، لكنني كنت خائفة من
 القدر فيظل الحب عالقاً بحلقتي حتى أموت، هو لا أدري
 إن كان قد تسرّع. لقد عرف كل شيء... ولم يصفعني،
 لأنني لم أحاول إغراءه، لقد بادلته الحب... وقبل
 لحظات فقط قال لي وهو يوصلني إلى باب الحي:

- أحياناً لا نستقرّ على حب، لقد اختلفت دروبنا لأن
 الحب الذي نريد سرقة زمن آخر منا ومكان آخر لم نهتد
 إليه في الوقت المناسب.

كانت حنان تبدو كتمثال من شمع تحت تأثير صدمة ما

سمعت، وحين سكنت أرجحنا الصمت بين أكثر من فكرة
وفي الأخير...

قالت لي بنبرة الدهشة نفسها:

- يوسف عبد الجليل، الذي نرتجف من نظرتة...
وأنت؟ كان يساورني الشك أحياناً، ولكنني كنت أكذب
نفسي، هيته كانت أكبر من أن أتخيله في موقف حب.
قلت لها بانفعال:

- الحب واحد دائماً...

«إديت يياف» أحبت رجلاً في عمر ابنتها، وحين عاتبها
الناس غتت: خذوا عيني شوفوا بيها: خذوا قلبي اسألوه.
الكاتبة مارغريت دوراس، الشيء نفسه عاشت أجمل قصة
حب مع رجل تكبره لدرجة لا يمكن أن يتقبلها عقل، لكن
هؤلاء يعيشون في مجتمع يعرف قيمة الحب.
وفوجئت بصوت نرجس من الخلف:

- ولماذا هم، نبينا محمد (ص) أحب مرتين، مرة
خديجة وكانت أكبر منه، ومرة عائشة وكانت في عمر
ابته، فأين المشكلة؟

شعرت ببعض الخجل منها، فأردت تغيير الموضوع:
- ماذا حدث؟ ألقى برنامجك التلفزيوني؟
أجابت:

- لا، اندلعت الحرب في القاعة بين مناصرات «القبس» ومناصرات «حماس» ثم امتدّت لتشمل الشيوعيات، ولأنني لست ممن قال عنهم المثل «الراعي والخمّاس يتقابضوا على شي الناس» انسحبت. سكتت قليلاً ثم أردفت وهي تبسم تلك الابتسامة التي تخفي معنى:

- ويمكنكثني أن أنسحب من هنا أيضاً حتى تكملوا الحديث وعمزت حنان في الأخير.

قلت لها وأنا أرتمي على سريري:

- لا... الأمر ليس سراً، فقد تكونين في صفّي لأن فضيلة الشيخ حنان لها فتوى لمصادرة عواطفي... هت حنان واقفة وقالت:

- إنها تحب رجلاً في عمر والدها فيما من المفروض أن تحب ابنه الذي يحبها بصدق. قللي بصراحة يا نرجس، هل تظنين أنّ لهذا الحب نهاية منطقية؟ قالت نرجس:

- أجمل ما في الحب أنه يخالف المنطق في أكثر من شيء، ولهذا عاش حب قيس وليلى، وروميو وجوليت، وأحب الناس على غير العادة فيلم «Love Story» واليلة بيضاء في ميائل... أوه! حنان الحب لا يقاس بعمر

الأشخاص، الحب له عمره، إنه مطلق يجب أن يرعاه
اثان دائماً...

قالت حنان بعصية مفتعلة:

- ما لا أفهمه، وما لا أتخيله...

فقاطعتها نرجس:

- يوسف عبد الجليل؟ أليس كذلك؟

فقالت حنان:

- أنا أفكر في توفيق... ستكون صدمة بالنسبة له إذا
عرف، إنه شغاف، رومانسي، وحساس، ما معنى أن يبقى
متعلقاً بها وهي تعامله بقموض كرجل احتياط؟ استمر
حديثنا لأكثر من ساعتين، لم نصل فيها إلى حل، وحين
صارت الساعة الثامنة والنصف قلت لحنان:

- سيبدأ رأفت الهجان بعد دقائق، من يريد مرافقتي

لمشاهدة الحلقة عند سعاد ونوال؟

فسألني حنان مزحة:

- ما يُقدِّرش رأفت الهجان إيجي هو؟ والله ماني قاذرة

تنحرك.

فرديت عليها بالمثل:

- نُقولو ونُشوف... واش نرجس تروحي؟

فقالت:

- تعرفيني لا أحب أجواء غرفتهما، ثم هل من الضروري أن تشاهده كل يوم، أظنك شاهدته كاملاً في السنة الماضية؟

فالت حنان ضاحكة:

- دعها تذهب، سيفضب يوسف شعبان إذا تأخرت عن الموعد... من يوسف إلى يوسف حتى لا يتغير عليها الموضوع...

أخذت مفاتيحي من على المنضدة ونظرت إليها وأنا أصطع الضحك:

- ها... ها... ها... بايخين في زواج كيمما راكم (قلت لهما قبل أن أخرج).

عند نوال كان في الغرفة أكثر من عشر صبايا أخذت مكاناً إلى جانب سعاد على سريرها، وبدأنا ندرش في انتظار المسلسل، وحين أطلت المذيعة وبدأت تحكي بعض التفاصيل التي ستحدث خلال الحلقة قالت إحدى الصبايا:

- واحد مايفرق l'adresse (عنوان) تاغها هذه المخلوقة (وكانت تفصد المذيعة).

فرذت أخرى:

غلا؟ (لماذا؟).

فقلت الأولى:

- بُعِثْتُهَا وَاحِدٌ يَقْفُلُ لَهَا قُمْهَا.

ودوت ضحكاتها جميعاً.

وحين بدأ الجينيريك بدأت تعليقات الصبايا:

- مَا هُوَ الرَّيْنُ تَاعِي (وكانت تقصد محمود عبد

العزیز).

ردت أخرى:

- سَأَسْمِي أَوْلَ طِفْلٍ أَنْجَبَهُ مَحْمُود.

وقالت لها أخرى:

- دَبْرِي بَابَاءِ الشَّاعِ (جدي أباء أولاً).

وضحك مرة أخرى، فيما قالت إحداهن بعد أن خفت

الضحك:

- أَنَا بِلَا بَابَاءِ نُجِيبُ قَفْلٌ وَنَسْمِيهِ يَوْسُفَ.

فخاطبتها سعاد وهي تغمزني:

- خَرَفْتِ le feu rouge (الأحمر) يَوْسُفَ لَلْوَيْزَا،

دارت عليه monopole (احتكار).

وضحك مرة أخرى، ثم بمجرد أن بدأت الحلقة رحن

يصفقن ويهتفن... ثم خيم الصمت، في السنة الماضية،

عُرض المسلسل خلال شهر رمضان، وكانت الشوارع

تخلو من الناس ساعة عرضه، كنا نقول هذا بطل عربي

في زمن لم يعد فيه أبطال - وسيبه صرنا قوميين أكثر... -

قالت لي سعاد بصوت منخفض:

- خرام نلقاؤ واحد كيما هذا في الجزائر؟

قلت لها مازحة:

- كوروندي واحد (أي اطلبي واحد).

فقلت:

- تحسبي ما عندناش... كايين مائة وألف لكن

المصريين فنانيين، ويعرفون أن يقولوا «ها نحن ذا» أما

نحن الجزائريين فعندنا مشكلة تعبير، نحب أن يكتب عنا،

وتنتج لنا أفلام، ونحبوا التحليل...

قلت لها مترسلة:

- سعاد أجلي الحديث حتى نهاية الحلقة... ربي

يعيش.

فسكتت بضع دقائق ثم قالت لي:

- إني متعبة.

سألها:

- ما بك؟

فقلت:

- تركت عبد الوهاب.

انتفضت وقلت لها:

- تركته؟ ... كنتما مثل السمن على العسل حتى نهار
أمس-

قالت:

- لقد خبرته بين شيتين، إنا أنا وإنا السجائر...
ضحكتُ بصوت مرتفع، ثم انتبهت إلى نفسي فخففت
صوتي مرة أخرى:

- هل هناك امرأة عاقلة تخير رجلاً بينها وبين
السيجارة... كنت تعرفين أنه مدخن منذ البداية.

قالت:

- كان يعدني في كل مرة أنه سيتوقف عن التدخين ولم
يفعل-

قلت لها:

- ثلاثة لا يقلع عنها الرجال السيجارة والخمر
والنساء... ما تعيش رُوحك (لا تعبي نفسك).

قالت:

- هناك مشكلة أخرى، إنه لا يستعمل فرشاة الأسنان،
وهذه في حد ذاتها صدمة بالنسبة إليّ، كيف أقبله ذات
يوم، أفضل الموت على تقييله...

قاطعتها فجأة:

- شئت.. هذه اللقطة أحبها كثيراً.

«مصر محتجالتك يا رأفت» قال محسن ممتاز لرأفت،
مصر محتجالتك.

هبت مصر كلها في عينيه القديرتين، في نظراته المحملة
بأمل شعبي وأمة، في صورته المحتمل بهتافات المكسورين.
- يا ويلي... (قلت لسعاد) هذا الرجل غير عادي...
ماخلاش.

هزنتي سعاد وقالت:

- اسمعيني أنا... ماذا أفعل؟
فقلت لها:

- اهديه فرشاة أسنان في عيد ميلاده.
فقلت ساحرة:

- بالله عليك، هل هناك رجل جزائري يقبل هذه
الإهانة؟

فقلت لها:

- وماذا أفعل لك؟ للأسف أنا لا أعاني هذه المشكلة.
فقلت:

- أعرف... أنت، جارك توفيق من السماء ولذ رومية
(C'est normal).

التهمني الصمت دفعة واحدة...

فحتى معاد دون قصد منها أعادتني إلى مدارات توفيق،
 نكزت الضمير... وأبصرت نفسي مراوغة حقيرة تهزيت
 من الاعتراف بذلك التردد تجاهه، وأظن أن عواطفني لم
 تكن قد استوت بعد، كانت فجة، إذ لم أكن أرى فيه غير
 الرجل الذي يلزمني حبه لا أكثر... فلم تكن لديّ طاقته
 في الحب...

كان يغربني برجولته الهادئة لا كأنني تشتبه، بل كأنني
 تتمنى تقمصه، وأظنني طوال تلك اللقاءات التي جمعتنا
 كنت أجالسه لارتشاف أسئلته، ذكائه، نظافته، أناقته
 البسيطة، كنت في كل مرة ألتقيه أزداد إعجاباً به.

كنا نسير على خطين لا يلتقيان
 إذ كان يزيد حياً بي كل يوم

- chaque matin je t'aime un peu plus fort.

قال لي ذات يوم جميل أذكرك جيداً،
 فقلت له مراوغة لأهرب مما يعنيه:
 - ميراوي ماتيو.

فقال:

- dix sur dix.

فقلت لأهرب أكثر:

- On se plaît quand on est jeune

on l'aime quand on est vieux.

(تعجب بعضنا بعضاً ونحن شباب، نحب حين تكبر).

فقال:

- على علمي لا تحيين ألبير كامو.

فقلت:

- أحب بعض ما قال عن الحب والمشاعر.

فقال:

- أما أنا فلا أحب يتأتاً في هذا الجانب، إنه يكتب من منطقته الغربي: الرجل في الغرب تعجبه كل النساء، ويتعاطاهن حسب قدرته في الوصول إليهن، هذا يسمى إعجاباً، وحين تحلّ عليه الشيخوخة يحب أول امرأة تتعاطف مع شعراته البيض، هذا يسمى حباً عندهم.

قلت له:

- تجد دائماً مجالاً لتجري مقارناتك بين الشرق

والغرب، ألا تعب من ذلك؟

قال:

- وأنت تجدين دائماً مجالاً لفتح باب الحديث بيننا

على مساحة فارغة، لم لا تقول لي إنك لا تحيينني دون البحث في كتب الأدب عن تلك العبارات التي لا أؤمن

بها... ألا تحيين؟

قلت له وأنا أتصنع الغضب :

- توفيق... لا تقل ذلك مرة أخرى، أنت تعرف كم أعزك لكنك تستعجل الأمور بطريقة لا تستوعبها عواطفني...

كنت خائفة جداً من خسارته... ولهذا تواريت خلف أكثر الكلمات تمويهاً، تلك التي قد تعني أكثر من معنى في الوقت ذاته، ولكنها في الغالب لا تعني الحب كما هو في شيء...

تعني أحبك قليلاً فلا تطلب مني المزيد.
تعني أيضاً إبق على حبي، أحتاج إليك في مأرب أخرى...

كنت أحتاج إليه للتوغل إلى خبايا يوسف... وللوصول إليه كنت أحتاجه جداً..

لكن الذي لم أحسب له حساباً، هو تجاوب يوسف معي...

- أنا تفاجأت بتجاوبه معي، صدقيني حنان.
كانت حنان بانتظاري، إذ لم تتم بعد،
دَسَسْتُ بنفسِي إلى جانبها بالفراش وعدنا إلى الموضوع ذاته.

قالت لي :

- يبدو أن ترجس لها الحق، الرجل تستيقظ عواطفه
تجاه المرأة التي يريد ولو في ساعة متأخرة من العمر.
- يحدث ذلك مع أي إنسان، رجلاً كان أم امرأة (قلت
لها):

- والحل؟

- لا أدري.

- ستلتقيان غداً؟

- لا أدري.

- لا تدرين! وعلى ماذا اتفقتما؟

- تسأليني كأن ما حدث بيننا بلغ حدود الوجود و...
و... نحن قلنا «بسم الله» لا أكثر، لم نتفق على شيء
وكنت كمن وقع تحت تأثير مخدر.
فقلت لي بأسلوبها الساخر:

- أحسنت... نامي إذاً، رُبَّك هو الحلال.

واستسلمت كعادتي لحلم جميل قبل أن يستولي النوم
على مخيلتي لتتطفئ، لكنني فُتحت في مارغريت دوراس
التي أحبها شاب في الثامنة والعشرين من عمره...

لنقل هي أحبته لشبابه، ... هو؟ لأي شيء أحبها...
لم تكن تلك المرأة الغائفة الجمال وهي في عقدها السابع
من العمر، لم تشد وجهها، كانت مسرحاً غامضاً

بالتجاعيد، جسمها صغير، وثيابها «عجائزية» حدّ الألم، مع حذاء بدون كعب تماماً لا يقول أكثر من أن هذه المرأة امرأة عملية، بعيدة كل البعد عن العشق... كيف كتبت L'Amant (العشيق)، بتلك التعممة، وفيما بعد، كيف عاشت تفصيلات روايتها تلك في عمر متأخر، كيف فاجأتها أوراقيها، وأحلامها بقصة حب ظلّت على كراسي الاحتياط عمراً!!!

يوسف، في الأخير، تماشيت مع مزاجه، لأنني ربما، روايته التي لم يكتبها بعد، وتلك الخطوط التي كان يبحث عنها لتركيب امرأة لم تلوثها الحياة بعد...

وتماشى مع مزاجي... لأنه ذلك الحلم المكتمل الرجولة الذي نما مع تفصيلات جسدي، تكوّن مع الكورنتين، تمدّد مع الرغبة، وجد حسب طلب الغريزة رجلاً له طاقة احتواء ربيعية وانتهت مواسم البرد عنده منذ زمن بعيد...

في اليوم التالي...

لم يكن حلمي على ما يرام... كانت قسطنطينة رمادية،
ووجع بنصف رأسي.

- غريب مع أنني نمت جيداً... (قلت لحنان) فقالت
لي:

- الطقس بارد... هذه لفحة هواء، لم لا تبقيين في
الغرفة، بعض الدلاء سيزيل الوجع، أنا سأمر لأرى أمي
في البيت، ثم أذهب إلى الجامعة...

- لا أريد أن أبقى في الغرفة، سأذهب إلى «ديلو» أعيد
الكتاب الذي استعمرته منذ أسبوع، وأحضر كتاباً جديداً،
نلتقي في الجامعة ما رأيك؟

زمت حنان شفيتها ثم قالت:

- لماذا «ديلو» قد تلتفين بتوليق على الطريق، ارحميه
قليلاً..

- لن ألتقيه لكنتي لن أهرب منه.

ولمّا كنت فعلاً أفكر بالالتقاء به وأنا أتوجّه نزولاً نحو «سان جان» حدث ما لم أتوقّعه، التقيت ابن خالتي جمال الدين مع حبيب، سألت علي جمال الدين ولم أقرّ علي إلقاء التحية علي حبيب، بل اعتبرت يومي منحوساً بمجرد رؤيته.

- ما الذي أحضرك إلى قسنطينة (قلت لجمال الدين) الحنين إلى الماضي؟

- جئت لأطمئن إليك؟

- إليّ أنا؟ واثن من خمّار مات؟

- جئت لإنهاء مشكلتي مع الخدمة الوطنية، وسأزور الأصدقاء.

كان حبيب قد ابتعد قليلاً منا حين لاحظ تجاهلي له، وقد تنبّه جمال الدين لذلك فقال لي:

- كنتما صديقين من ثلاث سنوات ما الذي حدث بينكما؟

- ياه... مرّت ثلاث سنوات... تصوّر؟

- جواب مقنع!

- ومشكلتك مع الخدمة الوطنية وجدت لها حلاً؟

- تقريباً.

- ستدفع رشوة إذن؟

- الرشوة تصل عند عائلتنا وتُخسَل بل تصبح غير صالحة للاستعمال...
- معناها لا حل؟
- لا.. هناك حل، خالي يعرف شخصاً، سأقابه في مكتبه بعد قليل في المنصورة، وسيرسلني إلى المناطق الصحراوية حيث لا مشكلات.
- أخيراً اقتنعت بأداء الواجب الوطني...
- ليس واجباً أن يُوقَّف مثقف على حاجز على الطريق مثل «السبيلة» (هدف رمائية) أو يدفع به نحو حرب لا يريدونها لكنني مجبور، وبعد انتهاء الثمانية عشر شهراً بالضبط على خير، سأغادر الجزائر، أيام عمري تصيح هباءً هنا (قالها بأسى بالغ).
- كنت أظن أن التشاوم لا يعرف لك طريقاً يا جمال.
- (ابتسم وقال بالتم):
- الكل يظن ذلك، في نظر الجميع المثقف المحال على التقاعد منذ اللحظة التي يحصل فيها على شهادته الجامعية شيء طبيعي... أين تمضين الـ week end؟
- في البيت...
- أراك هناك.
- تراني أنا أم ترى فوزية؟

ضحك ومضى... وترك ألمه على ألمي يتراكم بشكل
مجنون.

بلغت «ديلو» وشعور الغثيان يتأبني -
- ما هذا اليوم السيء؟

ضغطت على جرس الباب، فتحت السيدة «ديلو» التي
تعوّدت كل المشتركين في مكتبة زوجها، وببدايتها الغائقة
قالت لي:

- Qu'est-ce qu'elle a la petite Louisa aujourd'hui tu as le vi-
sage pâle?

(ما بها لويزة الصغيرة اليوم؟ وجهك مصفر).
أجبتها:

- Je ne suis pas dans mon assiette

(المقصود بالعبارة: لست على ما يرام).
فقالت لي:

- tu prends une tasse de tisane?

(هل تشربين فنجان زهورات؟ معي).
قلت لها: (شكراً، أنا مستعجلة).

- non merci, je suis pressée.

فقال صوت من ورائي:

- Tous les Algériens sont pressés madame Dilou, vous pou-
vez imaginer le reste.

(كل الجزائريين مستعجلين سيده ديبلو، لك أن تتخيلني
الياقني).

كان صوت ترفيق، استندرت نحوه وقلت له :

- تفقيت آثاري؟

- أنت تفقيت آثاري (قال)، كنت هنا قبلك؟

مددت له الكتاب وأنا أشد على رأسي ياخذى يدي.

- إعط الكتاب للسيدة ديبلو رجاء، واختر لي أي كتاب

على ذوقك، لكن شرط أن يناسب مستواي.

وضع الكتاب على المكتب أمام السيدة «ديبلو» ثم اتجه

نحو الرفوف وكلها دقيقة زمن ليعود بكتاب من القطع

الصغير *La neige en deuil* لـ: Henri Troyat قلت له بصوت

مرتفع نوعاً ما :

- الثلج في حداد، لا لن آخذ هذا الكتاب، أنا مثل

ابن الرومي أتشام من بعض الإشارات.

قال :

- إنها قصة جميلة وأسلوبها سهل يتناسب مع قدراتك.

قلت له :

- لا يهمني، لن آخذها.

قال :

- ما رأيك في La dernière impression (الانطباع الأخير)
ل: مالك حداد.

فقلت له:

- رأسي يؤلمني يا توفيق... فلا تثر أعصابي بهذه
العناوين.

ابتسم وقال لي بهدوئه الجميل:

- أنصحك ألا تثرني شيئاً هذا الأسبوع، أليس هذا
أفضل؟

قلت له:

- ربما يكون هذا أفضل.

قال:

- أهكلذا ابن الرومي مثلك أيضاً، يعدل عن قراءة كتاب
حين يتشامم من عترانه؟

فقلت له:

- سأحككي لك قصة، خرج ابن الرومي ذات يوم
للسفر، وعلى الطريق وجد مقصاً مقترحاً، فتشامم، وفكر
بالعودة من حيث أتى لكنه واصل سيره، فوجد حبات
تمر، فعدل عن سفره تماماً لأن المقص المقترح والتمر
شيئان يعنيان «لا تمر» فلم يعمر، عاد أدراجه.

خرجنا من عند «ديلو» على أساس أنني متوجهة إلى

الجامعة وهو متوجه إلى مقهى بيروت حيث له موعد مع أحد الأصدقاء، لكنه استوقفني عند صيدلية وطلب أقرصاً وقدمها لي، وقال:

- هذه لوجع رأسك.

أظنني يومها تأثرت كثيراً بما فعل...، نظرت إليه طويلاً ووجدتني غير قادرة على شكره بكلمة. فقلت له:

- توفيق..

- عيون توفيق..

- ستقتلني ذات يوم بطيبة قلبك.

- سأقتلك إذا أحببت غيري.

يختلف الغزل الجزائري عن سائر الغزل في العالم، فيه دائماً لمسة عنف،

«موقعة» كما تقول حنان.

لكن غزل توفيق يفوق كل تصوراتي أحياناً، يفاجئني من حيث لا أتوقع كلاماً في الحب.

قال لي مرة: «داروين» لم يعرف الحب، ولهذا أخطأ في نظريته.

قلت له: إنها خاطئة لأسباب أخرى.

قال: كلها خاطئة؟

قلت: ماذا تقصد؟

قال: نصف نظريته خاطيء، والنصف الآخر صحيح.

قلت وقد بدأ فضولي يتحرك من أماكنه:

- آه... نصفها صحيح... هات ما عندك.

- وجدت آية في القرآن تقول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ

مِنْ مَاءٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي

عَلَى رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا

يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

- لم لا تعد إلى التفسير الموجودة، بدل إعطاء تفسير

خاطيء للآية...-

- نحن بحاجة إلى تفسير علمي معاصر للقرآن. من

أذكى نحن أم الإنسان القديم؟

- أي قديم؟ نحن أبناء حقبة زمنية واحدة.

- وما الحقبة؟

- لا تترحم.

- هل تظنين أن داروين كان يمزح.

- أنت ما رأيك؟

- لو أن الإنسان أصله قرد فلماذا لم تنقرض كل

القردة، لماذا لم تخضع للتطور نفسه، ولماذا لم يتطور

الإنسان إلى كائن آخر؟ داروين لم يجب عن هذه الأسئلة،

القرآن أجاب كيف أوجد الله الحيوانات، وكيف تنزعت حسب ظروف الحياة، وحدد أيضاً كيف خلق الإنسان.

- أنت توصلني إلى الهاوية.

- أقفزي مستجدين قلبي في انتظارك تحت.

ولم أقفز قط إلى قلبه كما يجب...

مرّ يومي بأسرع مما توقّعت، والتقيت حنان في الثانية بعد الزوال، دخلنا مطعم الجامعة لتناول الغداء، ففوجئنا باحتجاج طلابي على وجبة الغداء، كان الطلبة يدقّون بالملاعق والشوك على صواني الأكل، وتلك كانت طريقة الاحتجاج التي توارثها الطلاب عن بعضهم بعضاً، جيلاً عن جيل. سألت حنان أحد الطلبة:

- تحوينا وأشن كامين؟

- ما كان وألر أحتي (لا شيء)... الدجاج بالبريش، المفرونة بالسوس، السلامة باليوجفَللُو (بالحلزون) والفاطر من عام جدي..

خرجنا نضحك وحنان تقول:

- حنا ناقضلنا، أيعقل أن نترك الأكل الطيب في «نحاس» ونأتي إلى المطعم الجامعي.
قلت لها:

- تأخرنا، مطعم «نحاس» يكون قد أغلق أبوابه ما أنهيت جماتي حتى عرفنا أين نتناول شيئاً طيباً.

قلت:

- بيتزا اليراميد.

وقالت بحماسة:

- نعم.

تلك البيتزا الساخنة التي عليها حرّ، مع عصير الليمون، شيء لا يمكنه أن يتسرب من ثغوب الذاكرة، شيء لا يمكنه أن يُنسى خصوصاً إذا كان مصحوباً بتعليقات حنان.

- من ينجح في انتخاباتنا النقابية حسب رأيك؟ (سألته).

- واش قألوك علي من الولية (أجابت ساخرة).

- جدك والي non؟

- جدي... الله يرزخه، بضحك حسب تحليلاتي السياسية للواقع المعاش كي تولي الأمور للترغيمات، الشرق هو التي يديها، بالتالي ذاذاك (جدك) يوسف هو التي يديها (سيأخذها) فرخت؟

ضحكتُ عالياً، وقلت:

- يا رب.

فعلقت بسخرتها المعهودة على جنوني ذاك:

- واقبل البيتنا تاح اليوم فيها العرعار ياه.
- بعد يوم آخر حملت الجرائد عنواناً كبيراً:
- النقيب... .
- وفردت جزءاً لأهم محطات حياة يوسف عبد الجليل.
- قال توفيق:
- إنه دكتاتور ناعم لهذا انشخب.
- فيما قال نصير:
- نحتاج إلى تاريخه وقوته لنواجه ما يحدث.
- وقالت ليلى:
- فعلاً، إنه يحصل على حقوقه بالتي هي أحسن، أو بالتي هي أحسن.
- ولم أقل إنه رجل له كثير من الحب في قلبه... .
- لي... لأفراد جريدته... ولكن من يحتاج إلى ذلك الحب من أبناء الوطن... أعرف... .
- كثيراً ما بالغت تجاه هذا الرجل، لكننا أحياناً نحتاج إلى بعضنا بعضاً، المبالغة لمزيد من الاعتراف بالجميل:
- حضرة النقيب... (قلت له على الهاتف في الساعة التاسعة ليلاً).
- نعم، غزالي الصغيرة.
- تمنيت أن أراك لأقول لك مبروك... .

- وأنا أيضاً تمثيت ذلك، لكنني سأغيب غداً أيضاً.
- سأسافر إلى العاصمة لإتمام بعض الإجراءات.
- إذا سأنتظرك بعد غد.
- بعد الظهر.
- سأحضرُ لك مفاجأة.
- وأنا سأحضرُ لك مفاجأة.
- أعرف... المصحف.
- لويزا...
- نعم...
- وصمت قليلاً، كمن كان متأهّباً ليقول كلمة حب، ثم تراجع.
- سنحكى في الموضوع بعد غد.
- لِمَ لا تقول الآن؟
- أخاف عليك من البرد، فما عندي كثير، وأنا أعرف أنك تتصلين من هاتف خارجي.
- هل تنزعج إذا...
- أنا لا أنزعج منك... أبداً... قل لي...
- أخذت نفساً وقالت له:
- يوسف.
- نعم؟

أخذت نفساً أعمق؛ وانهمرت دموعي مرة أخرى من ذلك الفرح الضاغط على صدري بكل قواء، لم أصدق أنني في تلك اللحظة امتلكت العالم كله بين يدي. هكذا الحب، يضع الكون في كفنا الصغيرة ويغني لنا نشيد الانتصار.

- يوسف (قلت له مرة أخرى) أحبك.

قال:

- وأنا أيضاً.

منحت لنفسي بعض الوقت لاسترجاع هدوئي وعدت إلى الغرفة، لأجد حنان منغمسة في حساباتها لتحضير حفلة بدار الصحافة على شرف النقيب.

- أظن بأن الجريدة كلها لم يكن لها معنى بدون وجود

حنان،

شوارع قسطنطينة...

الجامعة...

كل شيء يأخذ طعمه الخاص والمميز بوجودها، وحتى الأفلام التي نشاهدها معاً، تعلق بالذاكرة أكثر مع تعليقاتها الساخرة.

كنت سعيدة، لكن طغسي الداخلي بارد وكتيب.

سألت حنان عن تفصيلات الحفلة لكنها طرقت كل
 محاولي وكل سعادتني تلك بعينها وقالت لي:
 - أشعر أنك قلقة نوعاً ما، هل أنا مخطئة؟
 قلت لها:
 - أصبت.
 فقالت:

- حُطِّبْنَا زياد، إنجِئْنَا العُمة على القلب.
 زياد... رحباني آخر مجنون...

كنا نسمعه أكثر من مرة في اليوم أحياناً، وكان السؤال
 ذاته يخطر على بالي، حين أشعر أنني على وشك الموت
 من الضحك؛ كيف أنجبت فيروز التي تبكيها وتثير فينا
 بحور الحنين حين تغني، رجلاً يُضحكننا بنقده اللاذع إلى
 درجة البكاء أيضاً...
 وكنت لا أجد الجواب.

أصغي لتعليقاته، كأنما أسمعها في كل مرة لأول مرة،
 وأضحك حتى تنهمر دموعي...

لولا زياد لمرّ لي لي ثغليلاً بالشوق والخوف،
 ولولا انهماكاتي مع الزملاء في اليوم التالي بتزيين
 القاعة الكبيرة في دار الصحافة لشعرت أن الدهر كله
 تجمّع في ذلك اليوم.

لكني من تعبي في ذلك اليوم تمت مثل الموتى لولا
 ذلك الكابوس الذي يزورني في شكل رجل مقنّع يحاول
 خنفي من حين لآخر. قمت مذعورة...

كانت نرجس تصلي كعادتها، وحنان تغظ في نوم عميق
 توحشات وصليت أنا الأخرى.

وفاجأتني نرجس بفتح موضوع نسيته تماماً:

- إنك فتاة صالحة يا لويزا، تواظبين على الصلاة
 وتحين الخير، فلماذا لا ترتدين الحجاب؟

قلت لها بصوت متخفص:

- دعي جراحي تنام لوقت إضافي، هل تصدمين إذا
 عرفت أنني كنت أرتديه، ثم خلعت.

قالت مدهوثة:

- لا تقولي ذلك.

قلت لها:

- إنها الحقيقة، لكنني اضطررت لخلعه، لا أحب
 الحجاب الذي يزرع بي في تيار سياسي، أو قالب امرأة
 قديمة، أنا هكذا مرتاحة... ثم في الأخير شبابتنا ما
 يُخَلِّيوُنَا حتى وأحدة في حالها.

- يعني في هذه عندك الحق، لا أدري لماذا تدنّين
 مستوى الأخلاق عندنا لهذه الدرجة؟

- أنا سأقول لك، لأن الرجل الجزائري رثاء الشارع،
والمرأة رثاء البيت.

- قولني رثاء التلفزيون.

كانت تلك معادلة مجتمع صعب، أطرافها لم تقبل قط
علامة المساواة.

وإذا كان الرسام الغرنتسي «رينوار» قال ذات يوم إن
المرأة الجزائرية ترى العالم من ثقب الباب، فهي اليوم
ترى العالم عبر شاشة التلفزيون.

فحتى الثقب سدته الأحداث الجديدة التي أخذت مساراً
مأسوياً.

وقد تذكرت ذلك التحقيق الذي أجرتَه زميلتي ليلى
حول أهمية التلفزيون في حياة الناس، فوجدت أن أغلب
النساء بإمكانهن الاستغناء عن أي شيء ثمين لديهن لكن
لا يمكنهن الاستغناء عن التلفزيون. وقد أثبتت أغلبهن أنه
مثل فرد مهم بالعائلة، يشعرهن بالأمان والطمانينة.
وتذكرت خالي الذي يدخل أحياناً فيجد التلفزيون شغلاً
دون أن يكون أحد منا يشاهده. فيطفئه، لكن بمجرد أن
يفعل ذلك نحتج، لأسباب لا تقنعه أبداً... لأنها غير
مفيدة فعلاً...

نفضت عني كل الأفكار التي يمكن أن تدخلني في

متاهة مظلمة وقطعت الحديد مع نرجس بتشغيل الراديو،
 لتستل الموسيقى الشرقية أجواء الغرفة، فتصحو حنان،
 وتبدأ معاً يوماً جديداً، أتمنا فيه قضاء بعض حوائجنا في
 الصباح. وخلال فترة الظهيرة حضرت نفسي للحفلة، وقد
 حاولت أن أكون في بساطة الممثلة Meg Ryan التي أحبها
 كثيراً، لتلاً أبدو مثيرة للشك في الحفلة.



كل شيء أصبح جاهزاً لاستقبال النقيب...
 الزملاء مبتسمون والأحاديث فيها كثير من المزاح
 والفرح، رغم الحزن القابع في جيناتنا جميعاً على من
 رحلوا. توفيق كان قلقاً، ولم أفهم لماذا لم يلتصق بي
 كعادته، ظل ملازماً نصير ولبس ومجموعة من الكتاب
 الشباب ورسامي الكاريكاتور.

أنا بقيت واقفة أمام النافذة، أترقب وصوله، وبين الغينة
 والأخرى أصبح بنظري بين الغيوم، أمرب من تجاهل
 توفيق المفاجيء لي، وفي الأخير قررت أن أكلمه بالأمر،
 أشرت له أن يقترب مني، وبعد لحظة تجاهل إضافية،
 اقترب وقال لي:

- ما الأمر؟

- أنت ما الأمر؟

- لا شيء، أنا بخير.
- لماذا تتجاهلني إذن؟
- لاحظني أننا لسنا وحدنا.
- لكن هذه ليست عادتك.
- أعرف، لأنها عادتك أنت.
- توفيق، رجاء لا تحسني بالذنب.
- لن أحسك بالذنب، سأكل قطعة، «محبوبة» من التي أحضرتها حنان، فلم يعد باستطاعتي الصمود أمام رائحتها الشهية...
- وفعلاً تناول قطعة وبدأ يأكل منها، وهو يردد:
- كم هي لذيذة... الله... الله... الله على حنان وأفكارها الذميمة...
- شعرت أن كل ذلك هروب مفتعل، لكنني لم أفهم منه ذلك التصرف بعد، فقلت له:
- إنك تهرب.
- لا، أنا أكل.
- توفيق...
- هل تعرفين أن الشحم مضرّ بالإنسان؟
- أعرف، وماذا بعد؟
- الشحم المستعمل في «المحبوبة» غير مضرّ كثيراً.

- ها... ها... ها... كيف عرفت (قلت متعصبة).
- أنا طيب، هل نسيت؟
- لا... أنت صحافي على ما أظن.
- على ما نظنين...، هل تعرفين يا لريزا، في سورة الأنعام قال الله: ﴿لَوْ لَا أَنهٗ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَآ مُعْرَفًا عَلٰى مَا يَهِيمُ بِلَعْنَتِهِۦٓ إِلَّا أَنْ يَكُوْنَتْ مَبِيْنَةً أَوْ دَنَا مُتَّقُوْمًا أَوْ لَحَمَ بَنِيْرِ قَوْلُهُ رَجَسٌ أَوْ فَنَاءًا أَوْ لَمْ يَتَّخِذِ اللّٰهُ يَدَٓى قَمِيْنَ أَسْطَلَّ عَيْرَ بِلَآئِحٍ وَلَا عَارَ فَلَآ ذَلِكُمْ خَلَقُوْهُ رَجِيْمًا ﴿١١٥﴾ وَعَلَىٰ آلِهِمْ هَادُوا حَزَنًا حَكْلًا ذِي ظُلْفَرٍ وَرِيْحَ الْبَقْرِ وَالنَّمْرِ حَزَنًا عَلَيْهِمْ شُحُوْبُهُمْ إِلَّا مَا حَسَنَتْ ظُهُورُهُمْ أَيْ الْحَوَابِثَ أَوْ مَا ائْتَلَطَ بِعَقْمِهِ ذَلِكُمْ حَزَنَتُهُمْ بِتَخِيْمٍ وَإِنَّا لَصَادِقُوْنَ ﴿١١٦﴾﴾ صدق الله العظيم. حسب هذه الآية، الشحوم المحذد ذكرها محرمة علينا أم لا؟
- لم لا تسأل إماماً أو أحد أساتذتك بالجامعة بدل أن تسألني أنا التي لا حول لي ولا قوة؟
- سألت أحدهم، فقال لي الآية تقصد اليهود.
- خلاص... تخص اليهود...
- معنى هذا أنهم فعلاً شعب الله المختار، يخاف عليهم الله أكثر منا.
- إلى ما تريد أن تصل؟

- من المفروض أن تخصص الجامعات الإسلامية في كل البلاد الإسلامية لذوي الاختصاص، يعني لا يسمح بالانتساب إليها إلا للأطباء، والفلاسفة، وعلماء البيولوجيا، والجيولوجيا، وذوي الاختصاص، أنا أن تفتح للمراهقين وكل من هبَّ ودبَّ، فهنا الكارثة، حتى إن المدرسين فيها يقفون عاجزين أمام بعض الأشياء العلمية. لو كنت مديراً لهذه الجامعة لخصصت دعوات كل سنة لأهم العلماء في العالم ليناقشوا موضوعاً معيناً ويُدرّسوه علمياً للطلبة إذا كان من المفروض إعطاء الفرصة للجميع لأخذ العلم منها.

- تجد دائماً موضوعاً يفوق قدراتي لتتحدث فيه، أنا بهمني أن أعرف ما بك اليوم.

فقال لي بحزن مفاجئ:

- لا شيء يا لويزا، لا شيء.

وعاد إلى مجموعته.

بعد لحظات لمحت سيارة يوسف عبد الجليل، أشرت لحنان من بعيد أن وصل، اقترب مني عيسى، وهياً كاميرته وقال لي وهو ينفخ صدره نحو الأمام:

- سأخذ له صورة تاريخية.

نزل من السيارة، ورفع رأسه إلى فوق، ابتسم لي،

وحمل بيده شيئاً ثم أغلق الباب، وقد ركض الحارس نحوه يسألم عليه، كان بادياً أنه يهتبه.

تقدّم بعض الخطوات نحو الباب، ثم رفع رأسه مرة أخرى وأراني العلبة المزخرفة، حاملاً إياها نحو الأعلى قليلاً وقد عرفت أنه المصحف الذي أحضره لي.

لكن ثلاثة شبان لا يتجاوز واحداهم العشرين قفزوا فجأة من وراء البوابة، ناداه أحدهم بصوت مرتفع:

- يوسف عبد الجليل.

التفت يوسف نحوهم، وهو ما زال يحمل المصحف،

التفت...

كلنا كنا نشاهد المشهد... وكأنه حدث بالتصوير البطيء، أخرج أصغرهم مسدساً من تحت سترته، وأطلق نحوه الرصاص.

لا أدري كيف كان صراخنا فيما بعد، كيف ركضنا من الطابق العلوي إلى الخارج دفعة واحدة، وكيف واجهنا مشهد الدّم لرجلين اخترقهما الرصاص؛ يوسف عبد الجليل، وعلى مقربة منه الحارس عمي مسعود. كان المشهد لا يقول شيئاً بالنسبة إليّ سوى أنني فقدت الكون الذي كان بين يدي.

ركعت أمامه، وحاولت الارتضاء عليه وأنا أصرخ

وأبكي، حاولت لعلمة الكون الذي كان ملكي وصار جثة
تتفكك بمصحف اخترقه الرصاص ورداء من دم.
لكن أحدهم أمسك بي، أبعدني قليلاً عنه...
وأصوات... أصوات...

وإذا بتوفيق يمسكتني، ويصفعني، لأنته وهو يقول لي:
- ما زال حياً، ترفعي عن البكاء، ما زال حياً...
تحرك الجميع بسرعة، حين طارت سيارتان إلى المستشفى
الجامعي، إحداها حملت يوسف والثانية ذلك الحارس
الطبيب، الذي كأنما مُنح تلك الوظيفة من أجل أن يتحمل
جزءاً من المسؤولية التي يتحملها كل صحفي ومثقف.
حلّ الفزع والفجعة على المكان.

بعدها غادرنا جميعنا نحو المستشفى، تاركين بقايا حفلة
لم تبدأ لفرح مؤجل.

نرتعش خوفاً من الغياب... من العزلة... من ذلك
الانفراد الذي تفرضه علينا ظروف.

Nous craignons l'isolement comme la mort mais il y a toujours des querelles, des brouilles passagères suivies de raccommodement à propos d'une fête ou d'un malheur.

«إننا نخاف العزلة مثل الموت. لكن هناك دائماً
خصومات وخلافات عابرة تليها مصالحات بسبب فرح أو
فاجعة».

تذقرت هذا النص وأنا أجلس في مكتبة الجامعة، في
اليوم التالي للحادث في مواجهة الزجاج الخلفي المطل
على الشعر والمطر وحلمي الذي ينام في غرفة العناية
العائقة، إذ لم يكن بإمكانني أن أدخل أي محاضرة، ولا
أن أفتح أي كتاب ولا أن أقرأ مزيداً من الرثاء على وطن
يتحر من على أكتاف أبنائه.

كنت أفكر في ذلك النص الذي ظل عالقاً بذاكرتي منذ

الطفولة، وكنت أسأل نفسي لماذا لا أتذكر لأي كاتب مر، المولود فرعون، أم لمحمد ذيب، ثم رجحت الأول دون أن أعرف السبب، لكنني حتماً كنت متأكدة أن ما يعلق بالذاكرة له علاقة باحتياجاتنا أو بتلك الغرف التي نتركها شاغرة لحلم نأمل أن يتحقق ذات يوم، أو بأيام جميلة لا يمكننا أن نتكرر لأنها مضت مثلما يمضي بنا العمر كله ولا يعود. ورحت أفكر ماذا لو كان هذا العالم خالياً تماماً من الكتب؟

أكان بإمكانني أن أحتمل غياب والدي، والحياة تحت سقف لا تغادره الغيوم وحزن أُمي، وتحلّ عليه أكثر من حبيبة كلما صدر قرار وزاري كذلك الذي غير مجرى حياتي نحو الغربية والكتابة وذاك الذي منح قطعة حديد لخالي حميد كتب عليها كلمة «وسام» لتعرضه حنان والده.

كنت ما زلت معالقة النظر بعيون السماء الحزينة في ذلك الصباح حين انتهت إلى أن توفيق كان يجلس أمامي كئيباً كالسما. سأله:

- منذ متى وأنت هنا؟
- منذ ريع ساعة ربما.
- عفواً، لم أنتبه...

- ... (أشار بيده فقط أن لا يهم).

- كيف والدك اليوم؟

- ما زال في غرفة الإنعاش، لكن ما أنقذه حتماً هو سمك المصحف والعلبة، الرصاصتان تعفرتا به، أما رصاصة الكتف فلم تؤثر.

- سيعيش أليس كذلك؟

- احتمال كبير.

- إن شاء الله.

ثم مرّت فترة صمت قيل أن يقول لي:

- ليلة ما قبل أمس كنت بانتظار مكالمة من صديقي الهادي، وحين ردّ الهاتف حملت السماعة، لكن والذي كان قد ردّ في اللحظة نفسها، وحين سمعت صوتك ظننتك متطلبيني، بقيت على الخط، وسمعت ما دار بينكما من حديث دون قصد مني... لكنني إلى غاية هذه اللحظة لم أفهمك... لم أفهمك قط.

كان آخر شيء يمكنني أن أتصوره، آخر ما يمكن أن يخطر لي على بال، بحث عما يمكن أن أقوله له، عن أي مبرر يفسد انكساره، ولكنه لم يمنح لي فرصة للحديث.

قال وكأنما يعرض عليّ فرصة أخيرة للتراجع عن حب
مجنون عمره قارب على الانتهاء:

- هل تظنين أن والدي هو الرجل الذي يلزمك؟
mon père !!

أصرّ أن يقول والدي... مرتين بحثاً عن ثغرة في
عواطفني، أو قصداً لإحداث وخزة في قلبي-

- هل تظنين أنه جبار لا يخاف، وقادر على حمايتك،
لقد جتته في فترة ضعفه لا غير، طرقت بابه في الوقت
المناسب، فخيّل إليه أنه يحبك، ... (ثم قال بانفعال
أكثر) إنني لا أتصوره معك في موقف حب... لكنني
سمعت، وسمعتك، كلاهما يبحث في الآخر عما ضاع
منه، «صخ»؟

- إنك تهذي توفيق.

- إنك طغلة.. مراهة... دعيني أقول لك إنني أنا
حبك، أنا رغبتك، ولهذا لم تحاولي ولو مرة إنهاء علاقتنا
بوضوح، لم تجروني ولو مرة على مصارحتي برفضك لي،
لماذا تحاولين الاحتفاظ بي إذا؟

- إذا اسمعها بوضوح، لست الرجل الذي أريد...
لست أنت...

لم يقل شيئاً.

أخفى وجهه بيديه ورأيت الدموع تتسابق نحو ذقنه حين
أزاحهما، لحظتها فقط عرفت كم كنت قاسية وأنانية في
وضع كان يجب أن أكون فيه سناً له.

لا... ليس مستناً... ربما كان أقوى مني أمام ما
حدث. لكن...

وجب عليّ أن أتصرف كإمرأة نبيلة تعتذر لصديق عن
عدم تحمّس عراطفها تجاهه للذهاب بها إلى أبعد من تلك
الصدقة الجميلة...

- عذراً توفيق... كان كل شيء أقوى مني... كان
كل شيء يسير نحو ما لم أختره.

قال...

- المشاعر كالأذواق... لا تناقش يا لويزا.

وكان بوذي أن أقول له:

- لا أريد أن أحسرك كصديق لكنني لم أقو على
قولها، كانت ستكون محاولة فاشلة لإيقانه مرة أخرى في
خانة الاحتياطي ليظل إلى جانبي.

كنت لا أثق بالحب رغم حاجتي إليه.

فالحب مثل الورود التي تهدى إلينا في المناسبات
الغالية، نرميها في الزبالة بعد أن تذبل... يستحسن أن
تظل بجذورها حيث هي نذهب إليها نحن كلما اشتقنا إليها

لا أن تحبنا ملفوفة بأوراق السيلوفان وأشرطة جميلة لا معنى لها.

هم ترفيق بالقيام ثم تذكر شيئاً:

- ذلك الشخص الذي كنت معه في تلك الصبيحة قبل

أن نلتقي عند «ديلو» من يكون؟

- إنه ابن خالتي جمال الدين.

- الثاني الذي كان يقف على مسافة منكما؟

قلت له بعد لحظة صمت:

- حبيب ابن عمي، لماذا تسأل؟

- تذكرته، جامني مرة منذ ستينين، طلب مني أن أبتعد

عناك، بل حذرنى منك...

هكذا الزلازل... تبدأ بهزة وتنتهي بهزات أقل عنفاً.

الزلازل في داخلنا تفعل الشيء نفسه.

قلت له:

- حبيب لعل ذلك؟ غريب... لا أدري كيف أحببت

هذا الشخص ذات يوم؟... وكيف تمتيت له كل الأشياء

الجميلة التي تمنّاها مراهقة عاشقة لفتى أحلامها... هل

تعرف؟ لم أؤذ... قط؟

سكنت للحظة ثم أردفت:

- حروب أبناء الدم الواحد، كحروب الديكّة، تترك الخراب، لكن المتصر فيها «يتفخ ريشه» لا غير.
قال:

- لم أصدقه في الحقيقة، حتى إنني نسيتك لكنني أردت إخبارك فحين رأيتك تذكرته، اعتذر إن أسأت إليك.
قلت:

- هو أساء إليّ... أساء إلى طفولتي على رأي مناد بوكرازة... ثم قفزت إلى موضوع آخر، سأنته:
- هل تذكر أول حديث دار بيننا؟
- أذكر... عن الاسم المستعار.

- نعم... يومها لم أقل لك عن احتمال آخر للكتابة باسم مستعار.
- الهروب؟
- لا... الانتقام.

كان ذلك آخر ما قلنا، وبالمصادفة جاء تنمة لأول حديث دار بيننا، فقد مدّ يده، وصافحني بشكل رسمي، تماماً كما فعل في أول لقاء كان بيننا، وقال لي بهدونه ذلك:

- تَهْلَئِي فِي رُوحِكَ (انتهبي لنفسك).
فيما قالت دموعه الكثير وهو يتعد عني.

في اليوم التالي حين مررت على المستشفى لأرى
يوسف، فوجئت بأنه نقل إلى المستشفى العسكري
بالعاصمة، اتصلت هاتفياً بالبيت فلم يرد أحد.

وفي آخر الأسبوع حملت حفييتي وتوجهت نحو محطة
المسافرين اقتطعت تذكرة على أول حافلة متوجهة إلى
باتنة، وقد تمتعت لو أن الحافلة تتحول إلى بساط سحري،
يحملني مباشرة إلى أريس إلى بيت خالي حميد، إلى
حضنه، إلى حلمه المملوء ببساتين الطفولة، إلى نقائه
الذي لم تطله بعد القرارات الوزارية، إلى ذاكته التي لم
تستطع فرنسا أن تسفها بكل ما كانت تملكه من مدفعية،
إلى فرحه الذي يسكن تلك الذاكرة منذ أكثر من نصف
قرن لأن أزمة السكن ما زالت تحرم الفرح من شفة
شرعية.

طوال الطريق كنت أحاول أن أجد شيئاً آخر غير حزني
لأفكر فيه لكن الحزن كان في كل مكان.

في «أفرا» توقفت الحافلة لمعطل مفاجيء لأكثر من
ساعة، بعض الشبان كانوا ينكتون كالعادة:

- جذ لي الأخطاء السبعة بين «أفرا» الآن، و«أفرا» من
ثلاثين سنة.

فأجاب أحدهم:

- في الأولى كان بن بولعيد، في الثانية مات بن بولعيد، وراح يضرب بضربات خفيفة صاحب السؤال، وصحح له الجواب:

- تقوه عليك... واحد ظنة... بن بولعيد مات شهيد
أ... ش... شه... ذ... هفهمذ آيغ أمأ؟ (هل فهمت أم لا؟).

ودوت ضحكهم، ثم قال آخر:

- في الأولى يوجد حافلة في الثانية لا يوجد.
وقال صاحب السؤال وهو يقطب جبينه ويرفع سياسته متورداً:

- غلط... في الأولى يوجد حافلة معطلة، في الثانية الحافلة لا بأس عليها، هي التي منتهية جاب.
فقال المعني:

- في الأولى يوجد تلفون sans fil، في الثانية لا يوجد تلفون بالمرّة.

فأمسك صاحب السؤال في شعره وراح يصرخ:

- كل شي بالعكس... انتم وين قريتو؟
ثم التفت فجأة إلى أحدهم في الأخير وقال له وهو يُقَد الغنان الكبير عثمان عربوات في فيلم «التاكسي المخفي».

- أَنِي شَفْتُكَ... أَنْتِ اللَّيْ مُنْهِيَةٌ... حَامِسَبٌ رُوْحَكَ
طَيِّبٌ، نَعْلَيْتُكَ، نَعْلٌ وَالذَّيْكَ...

ثم وقف ومد قامته وأمسك مسطرة على شكل «T»
وراح يشرح:

- هَذَا لِبِلَاذٍ كَيْمَا جَسْمِ الْإِنْسَانِ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ لَدَ:
poison، بِذَا بِتَفَاحَةٍ بُونَا أَدَمَ فُلَعْلَعُهَا الرِّأْسَةُ وَصَلَّ الـ:
Pestomac إِنْشَكَّتَاهَا...

وارتفعت قهقهات الشبان فلم أعد أسمع شيئاً، غير
كلمات متقاطعة، وبعد أن خدأوا قال الشاب بالتهبرة
السابقة نفسها:

- يَعْطِيكُمْ لَعْمَى لَا أَعْطَاءَ سَبْعَةَ بَيْنَ الصُّورَتَيْنِ
«الميزيرية» هي «الميزيرية»-
ثم حلَّ الصمت بينهم-

وحين انطلقت الحافلة من جديد، لمحت فتاة صغيرة،
تتغافز ضغيفرتها من تحت منديل قصير يغطي أذنيها،
وترتدي ملابس لا تنسيق في ألوانها وشكلها، كنزة
صوف، فستاناً قصيراً، سروالاً ضيقاً، وحذاء لا لون له،
تركض وراء قطيع صغير من المعازز، وامرأة تحمل على
ظهرها «جيريكان» كبيراً من الماء. كانتا على ما يبدو

عائدتين إلى البيت، لكن صورتها ظلت عالقة في ذهني
لما تبقى من الطريق.

نزلت من الحافلة عند آخر محطة، لفحني هواء الجبل
البارد بقساوته، وأنا أسرع الخطى نحو البيت، كان المساء
يرثب أشياء من حولي، وكانت الأضواء تموت على
الأرصفة.

وأنا...

لا شيء في داخلي غير بقايا صور... بقايا أصوات،
وبقايا تهمي، تتقاذفني بينها دموع توفيق ودماء يوسف،
كم كانا يتشابهان في تلك الرقة، كم كانا يتشابهان وهما
يقولان الحب...

كم كانا...!

- ما بك، وجهك أسود، قالت أمي حين دخلت
البيت.

- لا شيء قلت لها، أين عايلي؟

- خير... (قالت) ما الأمر؟

- لا شيء... أريده.

وضعت الحقيبة أمامها، وصعدت السلالم ركضاً، وقد
وددت أن أرتمي في حوضه بمجرد أن يفتح الباب، لكن
عوائقي الداخلية دقت أجراس الخطر بمجرد أن جاءت

عيني في عينيه، سألني عن أحوالي، سألته عن أحواله،
 وبحسب عن شيء يتناسب مع حزني لأقراء.
 وقفت أمام مكتبته أمرر يدي على أوجاع رفاقه، أي
 وجع يابق بلياتي المتخمة بالحزن تلك؟
 فقال لي:

- قولني ما تريدني، قد أمون عليك أمر البحث.
 قلت له:

- أريد شيئاً يؤازرتني، أو يللمم بقايا الزجاج المكسور
 في داخلي، مذكّ يده نحو كتيب صغير ووضعه في يدي.
 «ما تبقى لكم» لغسان كنفاني.
 قلت له:

- لا أريده، تعبت من قضايا العرب.
 فقال:

- لا تقرني شيئاً إذاً، خذني شريطاً للرحابة واسمعيه،
 قلت له:

- فعلاً، عندك حق.
 فقال:

- أمن أجل هذا جئت تركضين إليّ من قسنطينة؟
 لم أجهه، توأريت وراء صمتي، وحتماً، كان قد
 فهمني، لذا واصل الحديث:

- ما مصير جريدتكم؟

قلت له:

- لا أدري.

قال:

- وعبد الجليل؟

قلت:

- أيضاً لا أدري، لم أسمع عنه شيئاً بعد أن نُقل إلى

العاصمة.

قال:

- إذا صحيح أنه سيتنقل إلى القاهرة.

قلت وقد تحرك قلبي من موضعه:

- إلى القاهرة؟

قال:

- هذا ما قالته الصحف.

قلت له:

- لم أقرأ الصحف، لم أنزل حتى إلى دار الصحافة

منذ الحادث، لكن لماذا القاهرة؟

قال:

- حسب ما كتبت، الرئيس شخصياً وجه له دعوة لفضاء

فترة النقاهة في مصر، لا تنسى أنه كاتب معروف

ومحترم، عدا أنه شارك متطوعاً في حرب أكتوبر 73
بمصر.

سكت قليلاً ثم أردف:

- أظنه هذه المرة اقتنع بما اقتنعت به أنا منذ

سنوات...

- لن يعود أليس كذلك؟

- أعرف أنه طلق الغرب بالثلاث، لكنه يحب المشرق،

مصر أو لبنان على الأصح، فنحن شعب جاف لن نجد

بيننا مبتغاه. إنه رجل رقيق رغم ما يبدو عليه من

قسوة...

ياه...!

من يعرف رفته أكثر من غزالته الصغيرة؟

من يعرف رائحة دفته وأحلامه غيري؟

من يعرف أغنية قلبه غير قلبي الذي يغنيها اليوم على

انفراد؟

من... غيري أنا... أنا وليس المشرق؟

عدت إلى غرفتي متخمة بابتسامة... منكسرة بوتد ذاك

الخبر الذي عرفته من خالي ثم سمعته من نشرة الأخبار

المسائية.

عدت...

وأكرام من الحجارة تملأ صدري، وكثير من القصف
حل على رأسي...

وعادت أمي تسألني من جديد:

- ما بك يا لويزا... لست أبداً على ما يرام.

قلت لها:

- غرفتي باردة يا أماء... غرفتي باردة.

فسارعت إلى إحضار مدفأة كهربائية صغيرة، وضعتها
قرب سريرتي ظناً منها أن البرد الذي أشعر به من علامات
الحمى وبداية زكام، إذ خرجت وعادت بعد قليل تحمل
لي فنجاناً ساخناً فيما كنت أفكر:

هل يمكن لهذه المدفأة الصغيرة أن تعوّضني دفاً من
أخذته مني القاهرة؟

غرفتي باردة يا أماء... غرفتي باردة...

هل تفهمين معنى البرد الذي يرتدنا ككفن حين تموت
قلوبنا من الوحدة، وحين تنزوي مشاعرنا في الركن الذي
لا تصله الشمس؟

كنت متعبة جداً من نفسي، مرهقة من ذاك الفزع الذي
ابتلعني كحوت...

مرهقة... وبحاجة إلى شخص ما يفهمني، يسمعني،

أو يقول لي أي شيء يخفف عني وطأة ما حدث، ولهذا
اتصلت بحنان. سألتها:

- ماذا تفعلين؟

أجابت:

- أفكر.

قلت لها:

- وأنا أيضاً.

قالت:

- هل تظنين أننا ستبدأ من جديد؟

- ربي عالم.

- حتى يُنَوِّرَ المَلْحَ نَظْنَ.

- لماذا تزيدين من ألمي.

- هذا زَهْرٌ وَلَا مَكْتُوبَ رَبِّي، وَاللَّهِ مَا عَلَى يَالِي.

- أشعر أنني على وشك الموت يا حنان، لا أصدق

أنني لن أراه ثانية.

- سيعود... والمهم مَمَاتَشْ... ربي يطول في عمره.

- آه يا حنان!

قلت لها، آه! ولم أجد بقية للكلام.

آه!

كنت أحتاج إلى «آه» تقلب جوفي المثقل بما حمل،

وتقلب الطبقات المتراصة لي على بعضها من قعر المعدة إلى أعلى الحلق...

كنت بحاجة إلى تلك «الآء» التي تستجد بالله وحده، تلك «الآء» التي تمرق السماء، وتخرق الأزمان، وتلعن تلك الظروف التي أسست تاريخاً من الفروق بيننا، وعمراً من المسافات تأخر الوقت لتقليصها.

قلت لحنان:

- ليتني رأيتك قبل أن يسافر.
- شيء ما يتفحضك (الآن) صخ ولا لالا؟
- ... لا أدري.

ثم قالت وقد حضر مزاحها:

- لا تدرين... والله هذه خنوة... أنت واقيل
 رايخلك شوية... au lieu (بدل) التي تبكي على سي
 يوسف سقيني (اسأليني) على هذا المغبون (ذلك
 المسكين).

- شكون؟
- قوليلي شكون... توفيق طبعاً.
- ما به؟

- على الأقل تذكرك، سأل عنك وحين لم يجدهك ترك
لك رسالة قبل أن يسافر.
- هو أيضاً سافر؟
- لكن إلى فرنسا، ولن يعود قال.
- ودراسته؟
- لم يعد يهتم أن يقارن بين الأديان، وأظنه اختار
الاختيار الصح، هكذا سيمارس مهنته في البلد الذي
يحترم العلم.
- فرنسا... لا أصدق... لماذا لم يسافر مع والده؟
- واثق زاخ إيدير توفيق في مصر؟ يعني «المالوف» ولأ
«الحوزي»؟ تعرفين كم يحب جدته «إيجيني»، وهناك أكثر
أماناً له على كل حال.
- هل تعرفين، إنني أفتقده.
- بسيطة... ستتعزدين (وقبل أن تنهي المحادثة
أردفت) حقاً لويزا، كاين فيلم «هدى ومعالي الوزير» على
القناة الجزائرية في التاسعة شرفية وداوي جراحك يطلق.
سأنسى...
- هذا ما أفتعت نفسي به في الأخير.
- هذا ما حدث تقريباً، وأنا أنصهر بين كتل الناس،
وأفقد ملامحي بين ملامحهم، وأنسى قلبي في الزحمة.

لولا... تلك المواجهة المسائية بيني وبين البرد الذي يسكن الجدران، والأرائك، وأشيائي التي خزنت فرح عشقي الأول، والتي حين أحاول الهروب منها أجد نفسي، أتفقد أثاره من جديد، في ما قرأته له... في ما أقرأ له دائماً الأحقة حين يطلّ بين وقت وآخر عبر الشاشات العربية. وأجدني معه بين شاشة وكتاب تلك المرأة التي تحتمي بخيالها من الجنون ومرارة الاكتئاب. وربما اقتنعت في الأخير أننا قد نكتفي بطيف رجل كهذا لنحافظ على اتزاننا أمام مآزق الحياة. وربما هنا فقط، فهمت خالي حميد الذي يجد اتزانه في مكتبه الحافل بالتاريخ، بين صور الراحلين الأحياء.



بينهم... حيث الثورة لا تزال نظيفة.
 وحيث جذّي بشبابه، بنضارته وابتسامته، يقيم طقوس
 تمسكه بالحياة.
 كنت أسأل خالي، أمام صورته التي تشاركه متاعب
 الأيام:

- هل يمكن للصورة أن تعوّضنا دفة الحياة؟
- وكان يجيب حسب مزاجه مرات:
- بـ «إيه» مختصرة كل حزنه وغيباته حين يكون الجبل

شاداً على عنقه، ويطلق العنان لفلسفته حين يكون أكثر هدوءاً:

- بعض الناس يعبدون الصور يا لويزا، فكيف تسأليني هذا السؤال؟ نحن لا نعبدها لكننا نبحث فيها عن تلك التفاصيل التي تفرح القلب، لا أقل ولا أكثر. أفهمه...

حين أغمض عيني فتحضرني تلك التفاصيل التي توقد نيران الذات، يحضرني انفعاله، يوسف عبد الجليل، غصبيه، طريقتة في اختطاف المرأة بنظرة، قلقه، وقفته المكابرة، وجوده الجميل... في الأخير...

أجدني أحتفظ بكل صور انفعاله، بكل صور قوته، وبعض من مواقف ضعفه لأنها حدثت أمامي أنا فقط. لطالما تمنيت لو أن الزمن توقف عند نظرتي، لكنه تعثر بتلك الرموز المشتركة بينه وبين توفيق... وهناك توقف، وهناك تعثر العمر كله...

وربما حاولت أكثر من مرة أن أقلع من جديد نحو فضاء آخر، لكن غيابهما معاً فقت أكثر من معنى لي داخلي، شتنتي، أضاع أجزاء كياني بين ما أريد وما لا

أريد، كسر يوصلني الطبيعية، فلم أعد أعرف أين الاتجاه الصحيح.

حتى في الحب...

لم أمتد إلى طريق تجربة الحب الذي يتكرر... لم أمتد إلى رجل يغممني دفناً، يحوم حولي، وأحوم حوله، ككوكبين لا يفترقان، ولهذا أخفيت أنوثتي، أودعتها في ثنايا الخوف اليومي من رصاصة مباغتة، أو خبير موت مفاجيء، أو خبير هزة سياسية جديدة... ذبت في تفصيلات الوطن المرتعش، وتعزّدت الوقوف اليومي أمام جنائز تمر، وتعقل حركة الشوارع أمام طفوس الحزن، تعزّدت ارتشاف مآسي الوطن، مثلي مثل كل المثقفين الذين يحتمون بأوراقهم وأقلامهم من انكساراتهم المتكررة...

شيء واحد تفظنت له ذات صبيحة من شهر مارس، الرابع عشر من مارس، حين خرجت من البيت كعادتي مترجحة نحو محطة الحافلات فالتقيت أحد أساتذتي في الثانوي، قال لي:

- أريس لا تكون جميلة إلا في مثل هذا اليوم.

كان أول يوم في الربيع حسب الشهور البربرية، وكان الفلاحون حريصين على تزيين الأشجار بباقات من نبتة

«الدرياس» وحرق بعض النباتات التي تبعث الدخان،
كطقس من طقوس استقبال موسم جديد بتفاؤل أن يكون
موسم خير.

قلت له:

- فعلاً،

ويومها أدركت، أن أريس التي حاولت السلطات
تكريمها وتكريم شهيدها الأول مصطفى بن بولعيد
بمرايطون متواضع يتسابق فيه الأطفال، لا يستطيع أن
يكرّمها سوى فلاحها البسطاء بطقس مثل هذا الطقس
المتميّز بتفاؤلاً بالحياة. ويومها عرفت أننا نحن من يجب
أن نعطي الحياة لمن نحب، ومن هنا بدأت أفكر في كتابة
رجل آخر له ملامح يوسف، وتاريخ الوطن، له حضور
يوسف، وجرح يوسف، وكتابة امرأة أخرى لم تعد
مراقة.

27 جانفي (شباط) 1999



الحجاب...

الحب...

الحرية...

تُحار المرأة العربية كيف تعيش، من ترضى ومن تغضب،
فواتين خلفها تسجها من كل الجهات.
فواتين حمايتها لغائبة تماماً
كل ما هناك فواتين عرقية تحميها وهمياً
وتنسف كبرائها في الواقع على جميع الأصعدة؟
مزاج مراهقة رواية تناقش هذه الموضوعات.

فضيلة الشاروق

رواية جزائرية مطبوعة في لبنان

مواليد 1967 ، الأوراس ، الجزائر

خريجة جامعة قسنطينة، ماجستير لآدب عربي

لكتب صفحة اسبوعية اسمها «نعيمه شرقية» في مجلة روثانا

صدر لها

- لحظة لاختلاس الحب، دار الفارابي، 1997.

- مزاج مراهقة، طبعة أولى، دار الفارابي، 1999.

- لقاء الضحك رياض الريس للكتب والنشر، 2002.

- اكتشاف الشهرة، رياض الريس للكتب والنشر، 2005.

ISBN 978-9953-71-221-2



9 789953 712212